البَـابُ الأولُ

التشبيه

التشبيه عند القدماءِ والمتأَخرين

لم يعن القدماء بحد التشبيه حدًّا يضبطه كما فعل المتأخرون، وإنما عرفوه صورة توضح الفكرة، وتُحسِّن المعنى، عرفه امرؤ القيس، فقال فى صفة الفرس:

مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مـدبـر معـاً كجُلْمود صخْر حَطَّه السيلُ من عَلِ

وعرفه النابغة، فقال:

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكب إذا طلعَتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

وعرفه عنترة، وطرفة، والأعشى، وغيرهم كثير.

وعندما أشرقت شمس الإسلام، سار شعراؤه سيرة من قبلهم مع تأثرهم بتصوير القرآن الكريم.

ولم يبحث التشبيه بحثاً مستقلا فى باب إلا عند المبرد «ت ٢٨٥ هـ»[1].

والواقع أن بحث التشبيه قبل المبرد كان مبثوثاً فى دراسات السابقين، فقد يأتى التشبيه فى خلال بحث أى موضوع بعيد عن التشبيه ولكن الحديث يتطرق إليه - والحديث ذو شجون - لذلك لم يكن الحديث عن التشبيه قبل المبرد هو المقصد الأول الذى يقصده المؤلف وإنما كان يأتى الحديث عنه عفواً.

* * *

(١) الكامل جـ١/٢١.

فبشار بن برد «ت ١٦٧هـ» قد عرض له فى قوله : ما زلت أُروى فى بيت امرئ القيس !

كأنَّ قلوبَ الطَّيْرِ رطْباً ويابسًا لدَى وكرِها العُنَّابُ والحَشَف البَالى

إذ شبه شيئين بشيئين، حتى صنعْتُ :

كأنَّ مُثار النَّقْعِ فوق رؤوسِنا وأسيافنا ليل تَهاوَى كَواكِبُه[1]

والخليل بن أحمد مثلا «ت ١٧٥ هـ» عرف التشبيه تمثيلا وصورة، وعرف طرفيه فى مثال أتى به لبيان جواز وصف النكرة فى مثل : «له صوت صوت الحمار»[2].

* * *

وكذلك سيبويه «ت ١٨٠ هـ» تحدث عن التشبيه من خلال موضوع آخر، ففى باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى لاتساعهم فى الكلام وللإيجاز والاختصار، يذكر من جملة الاتساع والاختصار مثالا للتشبيه، فيقول «ومثله فى الاتساع قوله عز وجل (ومثل الذين كفَرُوا كمثل الذى يَنْعِقُ بما لا يَسمعُ إلَّا دعاءً ونداءً) (البقرة ١٧١)، فلم يُشَبِّهوا بما ينعق، وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به، وإنما المعنى : مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى»[3].

ويفسر الزجاج «ت ٣١٦هـ» كلام سيبويه، فيقول :

قال سيبويه : وهذا من أفصح الكلام إيجازاً واختصاراً، ويلتمس وجهاً آخر للإيجاز، فيقول : «ولأن الله تعالى أراد أن يشبه شيئين بشيئين، الداعى والكفار بالراعى والغنم، فاختصر، ولكنه اكتفى بذكر الكفار من المشبه، والراعى من المشبه به، فدل ما أُبقى على ما أُلقى، وهذا معنى كلام سيبويه[4]».

* * *

(١) الأغانى جـ٣/١٩٦.

(٢) الكتاب جـ١/١٨١.

(٣) الكتاب جـ١/١٠٨.

(٤) إعراب القرآن للزجاج جـ١/٤٧.

وكذلك أبو عبيدة «ت ٢٠٧ هـ» ألف كتابه «مجاز القرآن» بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه إذ سئل فى مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه فى قوله تعالى: (طَلْعُها كأنّه رءوسُ الشّياطين) (الصافات ٦٥)، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقال أبو عبيدة: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلنى والمَشْرَفىُّ مُضَاجِعى ... ومَسْنُونةٌ زُرْقٌ كأنياب أَغْوَالِ؟

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أَمْرُ الغُول يَهُولهُم أو عِدوا به»[1].

* * *

ولما جاء الجاحظ «ت ٢٥٥ هـ» تناول فيما تناول التشبيه، وألقى ضوءًا على جملة من قضاياه.

١ - عقد موازنة بين قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - «الناس كلهم سواء كأسنان المشط»، وقول كثير عزة:

سواءٌ كأَسْنَان الحمار فلا تَرى ... لِذِى شَيْبَةٍ على ناشئٍ فَضْلا

حيث يقول: إذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبى وحقيقته، عرفت فضل ما بين الكلامين[2].

٢ - رأى أن التشبيه فى كل أحواله يفد الغيرية لا العينية[3]، وأن وجه الشبه يكتفى فيه أن يكون وصفاً يجمع بين الطرفين، فلا ينظر إليه على جهة الاستيعاب، وإنما يتجه الخاطر فيه إلى الصفة البارزة فى المشبه به، فليس الطاووس بأحسن من الإنسان، ولا الفرس الرائع... وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه وتلاوينه[4]

٣ - أورد كثيراً من التشبيهات الواردة عن العرب كتشبيه الأبكار ببَيْض النعام،

---

(١) نزهة الألباء، ٧٠ المشرق: نسبة إلى مشارف الشام وهى قرى تصنع السيوف.

(٢) البيان والتبيين جـ١/١٩.

(٣) الحيوان جـ١/٩٩ ط الساسى.

(٤) الحيوان جـ٢/٨٢.

والغيوم بصور النعام، كما أورد كثيراً من التشبيهات المبتكرة والنادرة[١].

٤ - بين لأبناءِ عصره الوصف الجامع بين طرفى التشبيه فى قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها.. الآية) (الأعراف ١٧٥)[٢].

فالجاحظ وإن لم يضع حدوداً واضحة للتشبيه، فقد أفاد إلى حد كبير، وألقى ضوءًا على جملة من قضاياه مما أعان المتأخرين على إتمام الصورة من بعده.

* * *

ويأتى المبرد «ت ٢٨٥ هـ» فنجده العالم الذى له الفضل على البلاغة العربية لهذا الباب الذى عقده فى التشبيه، وقد اعتمد فيه على استقرائه للشعر العربى وجمع الشواهد الشعرية، مما حقق له إفراد باب كامل فى موضوع التشبيه فى كتابه «الكامل».

ومع أنه بين الغرض من تأليفه الكتاب، فقال : «والمنية أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى مستغلق، وأن نشرح فيه ما يعرض من الإعراب شرحاً شافياً حتى يكون هذا الكلام بنفسه مكتفيا، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنياً»[٣].

وهذا غرض لغوى يصرف ملتمس البلاغة عن النظر فى الكتاب، لكن بالكتاب أبحاثاً بلاغية لا نجد لها مثيلا عند معاصريه.

فقد عقد باباً كاملا للتشبيه[٤] بدأه بقوله : فأحسن ما جاء بإجماع الرواة قول امرئ القيس فى كلام مختصر، أى بيت واحد من تشبيه شيء فى حالتين بشيئين مختلفين، وهو قوله :

كأن قلوبَ الطَّيرِ رطبًا ويابسًا لدى وكْرِها العنَّابُ والحشفُ البالى

---

(١) الحيوان ج٤/١١٠.
(٢) الحيوان جـ٢/٦.
(٣) الكامل جـ١/٢١.
(٤) الكامل جـ٢/٣٥.

فهذا مفهوم المعنى، فإن اعتراض معترض فقال : فهلا فَصَّل، فقال : كأنه رطبا العناب، وكأنه يابسا الحشف، قيل له : العربى الفصيح الفطن اللَّقِن يرمى بالقول مفهوما، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيا، قال الله عز وجل "(ومن رحْمته جَعَل لكم الليلَ والنهارَ لتسكنوا فيه ولتَبْتَغُوا من فَضْله) علمًا بأن المخاطبين يعرفون وقت السكون ووقت الاكتساب.

ثم استمر فى جمع الشواهد الشعرية التى تنطوى تحت باب التشبيه لكل الشعراء الذين مارسوا هذا الفن، أمثال علقمة الفحل، وذى الرمة، وجرير، وعروة ابن حزام، وغيرهم كثير.

وقد أطلق المبرد على التشبيهات التى أوردها كثيرًا من المسميات المختلفة التى تدل على حسنها وملاحتها، ولكنه فى النهاية أرجعها إلى أربعة، فيقول «والعرب تشبه على أربعة أضرب، فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى تفسير ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام»[1].

ومثل للتشبيه المفرط المتجاوز فى موضعين، الأول[2] : قول الخنساءِ :

وإنَّ صَخْرًا لتأْتَمُّ الهُداةُ به كأنه علمٌ فى رأسه نارُ

وقول الله عز وجل : (وله الجَوارِ المنشآتُ فى البَحْر كالأعلام) (الرحمن ٢٤).

الثانى[3] : قولهم لسخى : هو كالبحر، وللشجاع : هو كالأسد، وللشريف : سما حتى بلغ النجم.

ومثل للتشبيه المصيب فى ثلاثة مواضع، منها قول الشاعر :

بيضاءُ فى دَعَجٍ، صفراءُ فى نَعَجٍ كأنها فِضَّة مَسَّها ذهبُ[4]

وقول امرئ القيس فى طول الليل :

---

(١) الكامل جـ٢/٨٧.

(٢) الكامل جـ٢/٤٤.

(٣) الكامل جـ٢/٦٧.

(٤) الكامل جـ٢/٤٠، النعج : البياض الخالص. الدعج : شدة سواد العين مع سعتها.

كأن الثُّريَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِّها بأمراسِ كتَّان إلى صُمِّ جَنْدل[١]

ومثل للتشبيه البعيد الذى يحتاج إلى تفسير، ولا يقوم بنفسه، بقول الشاعر :

بـل لو رأتنِى أختُ جيرانـنا إذْ أنا فى الدار كـأنى حمار

فإنما أراد الصحة، فهذا بعيد لأن السامع يستدل عليه بغيره[٢].

فالذى يتبادر إلى الذهن أن التشبيه بالحمار المقصود منه البلاهة والبلادة، ولا يخطر بالبال أن مراد الشاعر قوة البنية وسلامة البدن.

أما التشبية المقارب فقد مثل له بثلاثة أبيات، فقال : «ومن حلو التشبيه وقريبه وصريحه قول ذى الرمة :

ورملٍ كأوْرَاك العَذَارى قطعتُه وقد جَلَّلَتْه المظلماتُ الحنادسُ[٣]

وقول الشماخ فى صفة الفرس :

مُفِجٌّ الحَوامِى عن نُسـورٍ كأنها نوى[٤] القَسْب تَرَّتْ عن جَريم مُلَجْلَج

وقول عقبة بن سابق العنبرى :

لـه بـين حَـوَامَـيْـه نسـورٌ كنـوى القَسْب

ثم علق على الجميع بقوله : فهذا تشبيه مقارب جدًّا[٥].

ونلاحظ أن البيت الأول من التشبيه الذى زعمه المبرد مقاربًا ينطبق تمامًا على

---

(١) الكامل جـ٢/٦٧، المصام : المقام، يقال للممسك عن الطعام : صائم لثباته على ذلك، أمراس : حبال، صم جندل : الجبال.

(٢) الكامل جـ٢/٨٩.

(٣) الحنادس : اشتداد الظلمة.

(٤) مفج الحوامى : مفرق الحوامى، الحوامى : نواحى الحوافر، النسور : واحدها نسر وهى نكتة فى داخل الحافر، وتحمد الفرس إذا صلب ذلك منه، ولذلك شبه بنوى القسب، ترت : سقطت، الجريم : المصروم، الملجلج : الذى قد لجلج مضغا فى الفم ثم قذف لصلابته.

(٥) يرى الدكتور على الجندى أن المبرد لم يمثل للتشبيه المقارب (انظر فن التشبيه جـ١/٧٨) والواقع أنه مثل له (الكامل جـ٢/٧٥-٧٧).

التشبيه المقلوب، وقد مثل بالبيت نفسه ابن جنى «ت٣٩٢هـ» الذى عقد له فصلا فى «الخصائص» وسماه «غلبة الفروع على الأصول».

ولا ندرى لماذا جعل المبرد بيت ذى الرمة من التشبيه المقارب مع أنه إلى التشبيه المفرط المتجاوز أقرب، فالمبالغة فيه ظاهرة، وابن جنى كان أقرب إلى الواقع حيث جعله من قبيل المبالغة، فقد قال: «ولا تجد شيئًا من ذلك إلا والغرض منه المبالغة»[١].

وقد أكد ما نقلنا عن الجاحظ من أن وجه التشبه يقع فى بعض الصفات لا كلها، فقال:

«واعلم أن للتشبيه حدًا فالأشياء تتشابه من وجوه، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع، فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق، ولا يراد العظم والإحراق[٢].

كما أكد كلام الجاحظ وأبى عبيدة عندما تكلم عن التشبيه الوهمى، واحتج له ضد المعارضين فى قوله تعالى: (طَلْعها كأنه رءوسُ الشياطين)[٣].

وعلى الجملة، «فقد رأى أن التشبيه جار كثير فى كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يُبْعِد»[٤].

وبهذا نرى أن المبرد نقل التشبيه نقلة واسعة، ووسع مباحثه، وهيأ له فرصة الشيوع: إلا أن تلك التقسيمات التى حددها لم يضع لها حدودًا تميز كل نوع عما عداه، كما أنه حكم على بعضها بالحسن أو القبح دون أن يعلل لذلك، ولكنه فى عصره المبكر لم يكن ينتظر منه أكثر من هذا.

* * *

(١) الخصائص جـ١/٣٠٨.
(٢) الكامل ج٢/٤٧.
(٣) الكامل ج٢/٣٩.
(٤) الكامل ج٢/٦٩.

وجاء ثعلب «ت ٢٩١ هـ»، وتلميذه ابن المعتز «ت ٢٩٦ هـ»، فتناول كل منهما التشبيه[١] بعرض أبيات من التشبيهات الرائعة لجماعة من الشعراء قدامى ومحدثين، واكتفى كل منهما بالسرد والإشارة المجملة إلى أنها حسنة أو عجيبة متجنبًا بيان مواطن الحسن والجمال فيها، وكان الحكم فيها حكمًا عامًّا من غير تعليل.

* * *

وجاء الرمانى «ت ٣٨٦ هـ» فتحدث عن التشبيه ضمن أجزاءِ البلاغة العشرة، وهو وإن سُبِقَ بالمبرد، وبحثه الواسع فى التشبيه، لكنه لم يلق له بالا، واختط لنفسه طريقًا غير الذى سلكه، فاتجه إلى القرآن الكريم يستمد منه استشهاده، ومثل لكل قسم من الأقسام بأكثر من آية، ولم يدخل على بحثه بيتًا واحدًا من الشعر، وكان بهذا المنهج متفقا مع عنوان بحثه، وملتزمًا بما أخذه على نفسه من ذكر النكت فى إعجاز القرآن.

وقد قسم التشبيه إلى أربعة وجوه[٢]:

١ - منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة - أى يكمن فيه الظهور والوضوح - ومثل بعدة أمثلة من القرآن، منها قوله تعالى: (والذين كَفروا أعمالُهم كَسَرابٍ بِقيعَةٍ يحسبُه الظمآن ماءً حتى إذا جاءَه لم يجدْه شيئًا) (النور ٣٩)، وبين وجه الشبه بين الطرفين بقوله: «وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة.

وليدلل على حسن النظم وعذوبة اللفظ يقول: ولو قيل: يحسبه الرائى ماء، ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغًا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصًا عليه، وتعلُّق قلب به، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حَسَن التشبيه فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة وصحة الدلالة.

---

(١) قواعد الشعر ٣١، البديع ١٢١ تحقيق د/خفاجة.

(٢) النكت فى إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٨١ - ٨٥.

٢ - ومنها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به العادة - أى تكمن فيه الغرابة - ومثل له بعدة أمثلة من القرآن، منها قوله تعالى، (وإذْ نَتَقْنَا الجبلَ فوقهم كأنه ظُلَّة) (الأعراف ١٧١)، وبين وجه الشبه فقال : وقد اجتمعا فى معنى الارتفاع فى الصورة.

٣ - ومنها إخراج ما يعلم بالبديهة إلى ما يعلم - والمراد التقريب بين طرفى التشبيه - ومثل له بعدة أمثلة من القرآن، منها قوله تعالى : (وجَنَّةٍ عرضها كَعَرْض السماءِ والأرْض) (الحديد ٢١).

٤ - ومنها إخراج ما لا قوة له فى الصفة إلى ماله قوة فيها - والمراد المبالغة فى التشبيه - ومثل له بعدة أمثلة من القرآن، منها قوله تعالى : (وله الجوارِ المنشآتُ فى البحرِ كالأعلام) (الرحمن ٢٤).

والرمانى ببحثه هذا مهد سبل البحث، ويسر المئونة على من بعده من العلماءِ الذين أفادوا منه، واغترفوا من فضله، وكانوا عالة على أقواله ومُثُله[١].

* * *

وجاء أبو هلال العسكرى «ت ٣٩٥ هـ»، فوجد طرق البحث ممهدة وسبل الاستقراءِ ميسورة، فعقد له بابًا تناول فيه فنون التشبيه[٢]، وصدر الفصل الأول بما قاله الرمانى فى تقسيمات التشبيه، جامعًا كل استشهاداته من القرآن - دون ذكره - مع إضافة كثير من الشواهد الشعرية، مبينًا جهة الحسن، ومكانها من القبول، موضحًا الطريقة المسلوكة فى التشبيه، والنهج القاصد فى التمثيل عند القدماءِ والمحدثين، فالجواد يشبَّه بالبحر، والسهم الماضى بالسيف، والحليم الرزين بالجبل.. وهكذا، منبهًا إلى أن «التشبيه يزيد المعنى وضوحًا، ويكسبه تأكيدًا وهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماءِ وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله، وموقعه من البلاغة بكل لسان.

---

(١) انظر الصناعتين ٢٤٠، تحرير التحبير ١٥٩، بديع القرآن ٥٨.

(٢) الصناعتين ١٨٠ وما بعدها.

والجديد عند أبى هلال، أنه فى الفصل الثانى[١] من هذا الباب، بين القبيح والحسن من التشبيه، والمعيب والخطأ، والردىء والبعيد، فى أمثلة عديدة، وبنى القبح على البعد فى الصفة التى تجمع بين المشبه والمشبه به، وأنه لا يُخرج الأغمض إلى الأوضح.

فمن القبيح مثلا قول خفاف بن ندبة:

أبقى لها التَّعداء من عَتَداتها ومتُونها كخيوطة الكتَّان[٢]

يقول: دقت الناقة حتى صارت متونها وقوائمها كالخيوط - وهذا بعيد جدًّا. فنرى أبا هلال تقدم بالتشبيه وتطويره من تنويعه، وكثرة شواهده، وتخريجها، وبيان مواطن الحسن والقبح منها، وهيأ الفرصة، ومهد الطريق لمن بعده، فسلكوا أرضا سهلة، وجَنَوْا قطوفًا دانية، وكثير من أمثالهم هى من اختياراته.

* * *

وجاء شيخ البلاغيين، وإمام النحويين، الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) فبحث التشبيه بحثًا مستفيضًا مستوفيًا، ففرق بين التشبيه والتمثيل، وميز التمثيل فجعله أخص، وبين مواقع التمثيل، وأثره فى النفوس وعلله النفسية - فى فصل لم يسبق به - فقال[٣]:

فالتمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدراها، وشب من نارها، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها... فإن أردت أن تعرف ذلك.. فتعهد الفرق بين أن تقول: فلان يكد نفسه فى قراءة الكتب لايفهم منها شيئًا، وتسكت، وبين أن تتلوا الآية (مثل الذين حُمِّلُوا التَّوراة ثم لَمْ يحْمِلُوها كمثل الحمارِ يحملُ أسْفارًا) (الجمعة ٥)، وتنشد قول الشاعر:

زَوَاملُ للأشعارِ لا علمَ عندهم بِجيِّدها إلا كعلم الأباعِر

---

(١) الصناعتين ١٩٦.

(٢) التعداء: من عدا يعدو عدوا وتعداء، العتدات: القوائم، المتون: الظهور.

(٣) أسرار البلاغة ٩٣.

لعَمْرُك ما يَدرِى البعيرُ إذا غَدا　　بأوْسَاقِه أورَاحَ ما فى الغرائر[١]

كما رأى أنه كلما كان التباعد بين طرفى التشبيه أشد، كان إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس له أطرب، لأنك ترى الشيئين مثلين متباعدين، ومؤتلفين مختلفين، لذلك تجد تشبيه البنفسج فى قوله :

ولازِوَرْدِيَّـة تـزهــو بـزرقتهـا　　بين الرِّياض على حُمْر اليواقِيت
كأنها فوقَ قاماتٍ ضَعُفْن بها　　أوائلُ النارِ فى أطرافِ كبْريتِ[٢]

أغرب وأعجب، ومبنى الطباع على أن الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه، وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر، وكان بالشغف منها أجدر.

وفرّق بين التشبيه المفرد، والمتعدد، والمركب[٣].

وعقد فصلا فى التشبيه المقلوب - الذى بدأ البحث فيه ابن جنى - واستشهد عليه كثيرًا[٤]. كما فرق بين التشبيه والاستعارة فى فصل طويل، «قال فيه : «الاستعارة وإن كانت تعتمد على التشبيه والتمثيل، وكان التشبيه يقتضى مشبهًا ومشبهًا به، وكذلك التمثيل، فالاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه وتطرحه وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به، كقولك : رأيت أسدًا، تريد رجلا شجاعًا، ووردت بحرًا تريد رجلا كثير الجود، فائق الكف، فالاسم الذى هو المشبه غير مذكور، وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به للمبالغة[٥]».

وبهذا نرى أن عبد القاهر ببحثه التشبيه والذى استغرق قرابة نصف كتابه «أسرار البلاغة» كان من أكبر علماء البلاغة الذين استوعبوا دراسة السابقين استيعابًا مكنه من التجديد فى بحثه، وتقديمه للدارسين غذاء شهيًا سهل الهضم،

---

(١) زوامل : جمع زاملة وهى التى يحمل عليها من الإبل وغيرها، الأباعر : جمع بعير.
(٢) سيأتى شرح البيتين.
(٣) الأسرار ١٦٨.
(٤) الأسرار ١٨١.
(٥) اسرار البلاغة ٢١٠.

وشرابا سائغًا للشاربين، وقدم للبلاغة العربية أثرًا يشهد ببراعته فى الفن وقوته فى البيان، وكان هضبة شامخة انحسر عندها المد، ووقف دونها علماء البيان.

* * *

وجاء السكاكى «ت ٦٢٦ هـ» وهو الذى لقيت البلاغة عنده الوضع الأخير من التجديد والتقسيم والتبويب، ففى كتابه «المفتاح» تكلم عن التشبيه[1]، فعرَّفه، وتكلم عن طرفيه، ووجهه، وأغراضه، وأحواله من حيث القرب والبعد، والقبول والرد، وعن الطرفين من حيث المحسوس والمعقول، وقسم الوجه إلى حسى أو عقلى، وإلى مفرد أو متعدد أو مركب، وكل ذلك فى إطار القواعد الجافة والاصطلاحات المنطقية، والشواهد القليلة.

وقد تحول بحث التشبيه عند السكاكى إلى مجموعة كبيرة من الأقسام والأحوال صيغت فى أسلوب ملىء باصطلاحات المناطقة والمتكلمين التى لا تفيد الدارس كثيرًا.

ونتيجة لتقسيمه وتبويبه وترتيبه يستطيع الباحث أن يضع يده بيسر وسهوله على ما يريد للتبويب والاختصار الذى امتاز بهما «المفتاح».

التشبيه والتمثيل

التشبيه والتمثيل فى اللغة لفظان مترادفان على معنى واحد، ولكنهما فى اصطلاح البيانين يخالف كل منهما الآخر.

(أ) التشبيه

١ - قال تعالى: (فيهنَّ قاصراتُ الطَّرفِ لم يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبلَهم ولا جَانٌّ... كأنهنَّ الياقوتُ والمرجانُ) (الرحمن ٥٦ - ٥٨).

---

(١) المفتاح ١٩٧.

٢ - وقال : (والقمرَ قَدَّرْنَاه منازِلَ حتَّى عادَ كالعُرْجُون القديم) (يس ٣٩).

٣ - وقال : (نساؤكم حرثٌ لكم فأْتُوا حَرْثكم أَنَّى شِئْتُمْ) (البقرة ٢٢٢).

* * *

فى الآية الأولى شبه الحور العين المقيمات فى الجنة بحجر من الأحجار الكريمة - وهو الياقوت والمرجان - فى صفة مشتركة بينهما وهى نقاء اللون وصفائه.

وفى الآية الثانية شبه القمر بعد كمال استدارته وضوئه الساطع الذى بدد ظلمات الليل بالعرجون القديم، فى الدقة والنحول والانحناء.

وفى الآية الثالثة شبه النساء بالأرض التى تُحْرث للزرع، لأن رحم المرأة ينبت فيه الولد كما ينبت البذر فى الأرض، وفى كليهما تكثير وعمران وفلاح.

فالتشبيه : هو عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لاشتراكهما فى معنى مّا، بأداة ملفوظة أو ملحوظة، كالكاف ونحوها، لغرض مقصود[1].

ومن البيان السابق يتضح أن أركان التشبيه أربعة :

المشبه، المشبه به، أداة التشبيه، وجه الشبه.

أما المشبه والمشبه به : ويسميان «طرفى التشبيه» فلا بد لكل تشبيه من وجودهما صراحة، وقد يحذف المشبه للعلم به، كقوله تعالى فى وصف المنافقين : (صُمٌّ، بكمٌ، عميٌ، فهم لا يرجعون) (البقرة ١٨)، فالمشبه محذوف يعود على المنافقين الوارد ذكرهم فى الآيات السابقة، والتقدير : هم كالصم وكالبكم وكالعمى.

أما الأداة : فهى كل لفظ يدل على المشابهة، وقد تكون حرفاً، أو اسماً، أو فعلا.

---

(١) فالجمع بين الشيئين : يدخل فيه التشبيه المفرد، والأشياء : يدخل فيه المركب، معنى ما : شامل لجميع الأوصاف كلها العقلية والحسية المفردة والمركبة، بأداة : ليتميز من الاستعارة، بواسطة الكاف ونحوها، ليخرج العطف لأنه جمع بين الشيئين والأشياء، ملحوظة : ليدخل التشبيه المضمر الأداة، لغرض مقصود : لئلا يكون عبثاً.

والحرف : كالكاف، وكأن[١]، كالآية (١، ٢)

والاسم : مثل، شبه، ومثل، ومماثل، ومضارع، ومحاك، وما كان بمعناها أو مشتقًّا منها، كقوله تعالى : (وحُورٌ عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) (الواقعة ٢٢، ٢٣).

والفعل : مثل، شابه، وحاكى، وجعل، وحسب، وخال، وغير ذلك مما كان بمعناها، كقوله تعالى : (وجعلْنا الليلَ لِباساً) (النبأ ١٠)، وقوله (قالوا يا موسى إمَّا أنْ تُلْقى وإما أن نكونَ أول مَنْ أَلْقَى، قال : بَلْ أَلقُوا فإذا حِبالُهم وعِصِيُّهم يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تَسْعَى) (طه ٦٤، ٦٥).

ومن أدوات التشبيه [عَلِم] وتستعمل لإفادة التشبيه - إن قرب ذلك التشبيه - بأن يكون وجه الشبه قريب الإدراك فيتحقق بأدنى التفات إليه، لأن العلم معناه التحقق، وذلك يناسب الأمور الظاهرة البعيدة عن الخفاء. فإن بَعُد أدنى بُعْد قيل [خِلْته، حَسْبته] ونحوهما، لبعد الوجه عن التحقق وخفائه عن الإدراك العلمى.

وقد تحذف الأداة، أو وجه الشبه، أو هما معاً فى اللفظ فقط لا فى التقدير كالآية الثالثة. وإليك بعض النماذج لزيادة الإيضاح :

(أ) قال الشاعر :

يا شبيه البدر حُسْناً ... وضياءً ومنالاَ
يا شبيه الغُصْن ليناً ... وقواماً واعتدالا
أنت مثلُ البدر لوناً ... ونسيماً وبلالا[٢]
زَارَنا حتَّى إذَا مَا ... سَرَّنا بالقُرْب زَالا

(ب) وقال تعالى : (وله الجَوَارِ المُنْشآتُ فى البحر كالأَعْلام) (الرحمن ٢٤).

---

(١) لا تفيد «كأن» التشبيه إلا إذا كان خبرها جامداً، فإن كان خبرها صفة مشتقة أو جملة، كانت للشك، أو للتحقيق، وبعضهم يجعلها للتشبيه فى مثل : كأن محمداً قائم، أى كأنه رجل قائم أى من أفراده، فشبه حالته غير قائم بحالته قائماً كما تقول : كأن محمداً أسد، أى من أفراده.

(٢) البلال : بكسر الباء، وهو الندوة بضم النون المشددة وسكون الدال، وفى رواية وملالا، والمراد سرعة الفراق.

وقال : (وجنةٍ عرضُها كعرض السَّماءِ والأرض) (الحديد ٢١).

وقال : (ولن تستطيعوا أن تعْدلوا بَيْنَ النِّسَاء ولَوْ حَرَصْتُمْ فلا تميلُوا كُلَّ المَيْل فَتَذَرُوهَا كالمُعَلَّقة) (النساء ١٢٩).

(جـ) وقال تعالى : (إنما المؤمنون إخْوَةٌ) (الحجرات ١٠).

وقال : (وجعلنا الليلَ لباسًا) (النبأ ١٠).

وقال : (وتَرَى الجبال تحسبُها جامِدَةً وهى تَمُرُّ مَرَّ السَّحَاب) (النمل ٨٨).

قال الشاعر يصف اعتدال الريح وقت الأصيل :

والريحُ تعبثُ بالغُصُون وقَدْ جَرَى ذَهَبُ الأصِيلِ على لُجَيْنِ الماءِ

* * *

فالتشبيهات فى المجموعة (أ) واضحة وجلية والسبب فى ذلك وجود أركان التشبيه الأربعة.

وقد يحذف وجه الشبه كما فى المجموعة (ب) وذلك حين تتوهم النفس المتكلمة أن الطرفين يتحدان فى جميع الصفات، وكأنهما صارا شيئا واحدا فى خيال المتكلم.

وقد تحذف الأداة دلالة على أن الطرفين قد تقارنا بلا حائل، وتعارفا بلا وساطة، فليس بينهما مفاضلة ولا مفارقة، وأن الحدود بينهما قد ألغيت وصار المشبه به هو المشبه.

وذلك لأن الأداة تدل على أن المشابهة بين الطرفين تتعانق بحائل، ويتشابهان ولكن لا تزال المفارقة بينهما موجودة، هذا الحائل هو الأداة فى التشبيه التى تجعل المفاضلة قائمة بين الطرفين، وأن الصفة فى المشبه به أقوى من المشبه.

وحذف الوجه أو الأداة فى الأسلوب يجعلهما بمنزله واحدة، فهما وإن كانتا أقل وضوحًا من الأولى لعدم استكمال أركان التشبيه، إلا أنهما أقوى منها فى باب البلاغة، من حيث جُعل فيه المشبه نفس المشبه به.

وقد يحذف الوجه والإداة معًا مع إبقاءِ الطرفين كالمجموعة (جـ) على أن يكون

المشبه به خبرًا عن المشبه، أو فى حكم الخبر، أو مصدرًا مبينًا للنوع، أو يكون المشبه به مضافًا إلى المشبه، وهذا النوع من التشبيه يحتل المكان الأسمى بين أنواعه، ويسمى التشبيه البليغ[1]، لأن المشبه يصير عين المشبه به بلا تفاوت، وهذا أدعى للمبالغة والتوكيد.

وهو مأخوذ من المبالغة بمعنى الحسن واللطف، لا من البلاغة بمعنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، لأن التشبيه الكامل الأركان قد يطابق مقتضى الحال لسوء فهم السامع ومع ذلك يقال له؛ بليغ بهذا المعنى.

* * *

ويسمى التشبيه الذى ذكرت فيه الأداة - مرسلا، والمحذوف منه الأداة - مؤكدًا، وما ذكر فيه جه الشبه - مفصلا، وما حذف منه الوجه - مجملا، وما حذف منه الأداة والوجه - بليغًا.

ويلاحظ أن الجامع الذى يجمع بين الطرفين يكفى أن يكون من جهة واحدة أو عدة جهات، لا من جميع الجهات، لأنه لو ناسَبه من جميع الجهات لكان إياه، وقد تنبه إلى ذلك الجاحظ وابن رشيق[2].

ويقول حازم القرطاجنى «ت ٦٨٤ هـ» مبينا التسامح فى الجامع الذى يجمع بين الطرفين والاكتفاء منه بنوع من المشابهة:

«واعلم أنه لا تحسن محاكاة ذى مقدار كبير بذى مقدار صغير، ولا محاكاة ذى مقدار صغير بذى مقدار كبير، إذا كان بينهما تفاوت فى ذلك، وكذلك لا تحسن محاكاة ذى لون بذى لون مخالف له مالم تقصد فى ما تفاوت من ذلك وما تخالف هيئة فعل أو حال فى المحاكى والمحاكى به.

---

(١) من صور التشبيه البليغ أيضاً، أن يكون المشبه به حالا من المشبه مثل: سال الماء لحينا، أو بياناً للجنس مثل: هذا ماء من لجين وذاك أصيل من ذهب، أو يكون المشبه به مبيناً بالمشبه، كقوله تعالى: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) (البقرة ١٨٧) أى حتى يتبين لكم الفجر كالخيط الأبيض، وقد فهم الصحابة الحقيقة من الخيطين قبل نزول (من الفجر) حتى إن بعضهم وهو عدى بن حاتم غفل عن هذا التشبيه وعن بيان قوله (من الفجر) فحمل الخيطين على الحقيقة، وحكى ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فضحك وقال: إن وسادك لعريضا، وروى «إنك لعريض القفا» إنما ذلك: بياض النهار وسواد الليل، والقفا العريض يستدل به على قلة فطنة الرجل «البحر المحيط ص ٢/٥١».

(٢) الحيوان ج١/٩٩، العمدة ج ٢/١٩٤، انظر فصل «التشبيه عند القدماء والمتأخرين» من الكتاب.

فإذا قصدت محاكاة هيئة بهيئة لم تلتفت إلى تفاوت ما بين الواحد والآخر فى المقدار، ولا تباين ما بينهما فى اللون، ولذلك استحسن تشبيه الذباب بالقادح[(١)]، لأن المقصود محاكاة إحدى الحالين بالأخرى، فالمحاكاة إنما تعلقت بالهيئة لا بالمقدار، وعلى هذا حمل تشبيه العصا بالجان[(٢)] وهو حية صغيرة كثير المهيج والحركة بعد تشبيهها بالثعبان[(٣)]، لأن المقصود فى التشبيه محاكاة هيئة الحركة، وليس المقصود محاكاة مقدار هذا بمقدار ذلك»[(٤)].

كما يلاحظ أَن وجه الشبه الذى يجمع بين الطرفين يرمى أَحياناً إلى رسم الصورة كما يراها الحس وكما تحس بها النفس أيضاً.

نجد ذلك واضحاً فى قوله تعالى يصف حال الجبال يوم القيامة (وتكونُ الجبالُ كالعِهْن المنْفُوش) (القارعة ٥)، فالعهن المنفوش يصورُ أَمامك منظر هذه الجبال وقد صارت هشة لا تتماسك أَجزاؤها، وتحمل إلى نفسك معنى خفتها ولينها.

وقوله تعالى: (والقمَر قَدَّرْناه منازِلَ حتى عَادَ كالعُرْجُون القَديم) (يس ٣٩)، فهذا القمر بهجة السماءِ لا يزال يتنقل فى منازله حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة، وهذا الضوء الساطع الغامر الذى يبدد ظلمة الليل، يصبح بعد هذا كله دقيقاً نحيلا مُحْدَوْدَباً لا تكاد العين تتنبه إليه، وكأنما هو فى السماء كوكب تائه، لا أهمية له، ولا عناية بأَمره، أَولا نرى فى كلمة «العرجون» ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال فى آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضآلة أَمره معا؟.

وقوله تعالى فى وصف النار يوم القيامة، (إنها تَرْمِى بِشَرَرٍ كالقصر، كأَنَّه جِمَالةٌ صُفْر) (المرسلات ٣٢، ٣٣)، فالقصر وهى الشجر الضخم، والجمال الصفر،

---

(١) يشير بهذا إلى قول عنترة فى وصف الذباب – وسيأتى بيانه:

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غردًا كفعل الشارب المترنم
هزجًا يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

(٢) يشير إلى قوله تعالى: (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) (القصص ٣١)، وقوله تعالى: (وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب، يا موسى لا تخف، إنى لا يخاف لدى المرسلون) (النمل ١٠).

(٣) يشير إلى قوله تعالى (فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) (الشعراء ٣٢).

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ١١٤.

توحى إلى النفس بالضخامة والرهبة معاً، وصور لنفسك شررا فى مثل هذا الحجم من الضخامة يطير.

كما يرمى أحياناً إلى اشتراك الطرفين فى صفة محسوسة ولكن للنفس كذلك نصيبها فى اختيار المشبه به الذى له تلك الصفة، فالقرآن شبه نساء الجنة فى ثلاث آيات، فقال:

(فيهن قاصراتُ الطَّرْفِ لم يطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبْلَهم ولا جَانٌّ... كأَنهنَّ الياقُوتُ والمَرْجَان).

(وعندهم قاصراتُ الطرف عِينٌ، كأَنهنَّ بَيْضٌ مَكْنُون) (الصافات ٤٩).

(وحورٌ عِينٌ، كأَمثالِ اللؤلؤ المكنون) (الواقعة ٢٢، ٢٣).

فليس فى الياقوت والمرجان، والبيض المكنون، واللؤلؤ المكنون، لون فحسب، إنما هو لون صاف فيه نقاء وهدوء، وهى أحجار كريمة تصان ويُحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة، واشتد الارتباط، أما الصلة التى تربطهن بالبيض المكنون فضلا عن نقاءِ اللون، فهى هذا الرفق والحذر الذى يجب أن يعامل به كلاهما، أولا ترى فى هذا الرفق صلة تجمع بينهما؟ وهكذا لا نجد الحس وحده هو الرابط. والجامع، ولكن للنفس نصيب أى نصيب»[1].

طرفى التشبيه
من حيث المحسوس والمعقول

التشبيه ميدان فسيح من ميادين البلاغة، وله منزلة سامية، وما ذلك إلا لأنه يدنى البعيد، ويجلو الغامض، وتُكْتَسى به المعانى بهاء ورفعة، وطرفى التشبيه من حيث المحسوس والمعقول يتنوعان إلى:

---

(١) من بلاغة القرآن ١٩٢.

١ – تشبيه المحسوس بالمحسوس :

شاع فى القرآن الكريم تشبيه المحسوس بالمحسوس، ومن ذلك :

قوله تعالى : (والذين كَفَرُوا يَتَمَتَّعُون ويأكُلُون كما تأكُلُ الأنعامُ، والنارُ مَثْوًى لَهُمْ) (محمد ١٢)، فقد صور القرآن الكفار بأنهم يأكلون ويتمتعون غافلين عن الجزاء الذى ينتظرهم، كما تأكل الأنعام وترمح غافلة عن سكين الذابح.

وقوله : (كذَّبتْ عادٌ، فكيفَ كان عَذَابِى ونُذُرِ، إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَراً فى يوم نَحْسٍ مستَمِرٍّ، تنْزِعُ الناسَ كأنهم أَعْجَازُ نَخْلٍ منْقَعِرٍ) (القمر ١٨ – ٢٠)، فقد شبه القرآن عاداً قوم هود – عليه السلام – حين كانت الريح تقتلع رءوسهم فتجعلهم بلا رءوس، وكانوا ذوى أجسام عظام – بأعجاز النخل المقتلع من مغارسه، فقد شبه الأمر غير المعتاد بما جرت به العادة والمعروف ببلاد العرب.

وقوله : (يعْمَلون لهُ ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيل وَجِفَانٍ كالجَوَابِ وقُدُور رَاسيات) (سبأ ١٣)، فقد شبه الجفنة بالحياض فى السعة.

وقوله : (أَلَمْ تر كيفَ فَعَل ربُّك بأَصحابِ الفيل، أَلَمْ يجعلْ كيدهُمْ فى تَضْليلٍ، وأَرْسَلَ عليهم طيْراً أَبابيلَ، ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيلٍ، فجعلهم كعصْفٍ مأكُول) (الفيل ١ – ٥)، فقد شبه أصحاب الفيل. وهم جيش أبرهة الحبشى الذى قدم مكة لهدم الكعبة، فسلط الله عليهم جماعات الطير ترميهم بقذائف من الحجارة حتى أهلكهم الله – شبههم بالعصف المأكول – وهو قشر البُرّ بعد نزع الحب منه، أو بالتبن الذى أكلته الدواب وراثته، ولكنه جاء على ما عليه أدب القرآن، كقوله : (كانَا يأكُلَانِ الطَّعَام) (المائدة ٧٥)، فشبه تفرق أجسامهم بتفرق أجزاء الروث الذى تروثه الدواب.

وقوله : (قَدْ يَعلمُ الله المعوِّقين منكمْ والقائِلِين لِإخوانهم : هَلُمَّ إلينا، ولا يأتُونَ البأسَ إلا قليلاً، أَشِحَّةً عليكم، فإذا جاءَ الخوفُ رأيتَهُم ينْظرون إليكَ تَدُورُ أَعْيُنُهم كالذى يُغْشَى عليه من الموت) (الأحزاب ١٨ – ١٩). فقد شبه الله المنافقين – الذين كانوا يصرفون المؤمنين عن نصرة النبى – صلى الله عليه وسلم – يوم

الخندق - وقد امتلأوا بالخوف من العدو، ونظروا إلى الرسول مذعورين تدور أعينهم يميناً دون أن تطرف، شبههم فى حالتهم تلك بدوران عيْنَى الذى تصيبه سكرات الموت.

ولو اقتصر سبحانه - وهو أعلم - على قوله : كالذى يغشى عليه، لكان كافياً فى المقصود، ولكنه لم يقف - سبحانه - عند ذلك حتى زاد شيئاً بقوله : (من الموت) إذ حالة المغشىّ عليه من الموت أشد حالة من غيره، ولو جاء عز وجل فى موضع (الموت) الخوف، لكان الكلام بليغاً، والذى جاء به التنزيل أبلغ[1].

* * *

فالتشبيه الحسى : هو ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، وقد أدخل علماء البلاغة مع المشبه به الحسىّ المشبه به الخيالىّ : وهو ما لا تدركه الحواس بذاته، ولكن تدرك مادته، كقول الصَّنَوْبَرِىّ :

وكأن مُحْمَرَّ الشقيق إذا تَصوَّب أو تصعَّد
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْنَ على رماح من زَبَرْجَد[2]

فصورة الإعلام المصنوعة من ياقوت المنشورة على رماح من زبرجد شىء لا يدرك لعدم وجوده وإنما المدرك مادته وهى : الأعلام والياقوت والرماح والزبرجد.

* * *

٢ - تشبيه المعقول بالمعقول :

هو المعانى الكلية التى تدرك بالعقل، كتشبيه العلم بالحياة، والجهل بالموت، والمرض بالهلاك، والفقر بالكفر.

---

(١) التفسير القيم ٢٨٥.

(٢) محمر الشقيق : المحمر من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهو ورد أحمر فى وسطه سواد يسمى «شقائق النعمان»، تصوب : مال إلى أسفل، الياقوت جوهر نفيس مختلف الألوان، والمراد هنا الأحمر، والزبرجد : حجر كريم أخضر اللون.

وقد أدخل العلماء مع المشبه به العقلى المشبه به الوهمى : وهو مالا يمكن إدراك أجزائه بالحواس لعدم وجودها لكنها لو وجدت لم تدرك إلا بها، كقول امرئ القيس :

أيقْتُلنى والمشْـرَفِىُّ مُضَـاجِعِى ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغْوَال؟

والفرق بين الوهمى والخيالى : أن الوهمى لا وجود لهيئته ولا لجميع مادته، والخيالى جميع مادته موجودة دون هيئته[1].

٣ - تشبيه المعقول بالمحسوس :

كثر فى القرآن الكريم إيضاح الأمور المعنوية بالصور المحسوسة المرئية، ومن ذلك :

قوله تعالى : (له دعْوَةُ الحقِّ، والذين يَدْعُون من دُونِه لا يَسْتَجِيبُون لهم بشىء إلا كباسِطِ كفَّيْه إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَمَا هو ببالِغِهِ، وما دُعاءُ الكافرين إلا فى ضلال) (الرعد ١٤)، يشبه الله عُبَّاد الوثن حينما يدعون آلهتهم ولا يرجع هذا الدعاء عليهم بفائدة، بمن يبسط كفيه للماء ليشرب فلا يصل الماء إلى فمه ما دامت كفاه مبسوطتان.

وقوله : (ومَثَلُ الذين كفَرُوا كمثل الذى يَنْعِقُ بما لا يَسْمَعُ إلا دعاءً ونداءً) (البقرة ١١٧)، يصور القرآن حال الكفار الذين يدعون أوثانهم فلا تفهم ولا تجيب بحال الناعق الذى يصوت للأغنام فلا تفهم منه إلا دَوِىَّ الصوت.

وقوله : (ومنْ يُشْرِكْ بالله فكأنَّما خَرَّ من السَّماء فتَخْطفُه الطيرُ أو تَهْوِى به الرِّيحُ فى مكانٍ سحيقٍ) (الحج ٣١)، يصور القرآن حال من يشرك بالله فى أنه لا بقاء ولا استقرار له، كحال من سقط من السماء فلا يستقر على الأرض لحظة بل الطير تتخطفه والريح تهوى به.

وقوله : (قل أندْعُو من دُون الله مَالَا ينْفَعُنا ولا يَضرُّنا، ونُرَدُّ على أعْقَابِنا بعْدَ إذْ

---

(١) حاشية الدسوقى جـ٢/٣١٨.

هَدَانا الله، كالذى اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطينُ فى الأرض حَيْرانَ، له أصحابٌ يَدْعُونه إلى الهُدَى ائْتِنا) (الأنعام ٧١).

يصور القرآن حال من يشرك بالله بعد التوحيد بحال من أضلته الشياطين فى الصحراء وله أصحاب يدعونه إلى الهدى وينادونه : ائتنا، وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء حيران، لا يدرى أى الفريقين يجيب.

وقوله : (وقَدِمْنَا إلى ما عَمِلُوا من عَمَل فجعلنَاه هَبَاءً منْثورا) (الفرقان) ، يصور القرآن ضياع أعمال الكفر بحيث لا يملكون لها ردًّا بصورة الهباء المنثور.

* * *

وقد يأتى تركيب التشبيه فى صورة يُوهم ظاهرها أن بها إخلالا فى التركيب أو فسادا فى الترتيب، لكن بالتأمل والبحث عن العلل نجد أن الأساليب جارية على منهج البلاغة، ولو جاء التركيب على الصورة التى تَوَهَّمُها المتوهم لكان النظم معيبا، من هذا :

قوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء) (البقرة ١٧١)، فالتشبيه لوجاء على وجهه لكان : ومثل الذين كفروا كمثل الضأن المنعوق بها، ومثل الرسول الداعى لهم كمثل راعى الضأن الذى ينعق بما لا يسمع.

والتصريح بتشبيه الكفار بالضأن مُنَفِّرٌ عن الرسول عليه السلام - إذ العرب يعدونها شر مال، تقول صغرى بنات ذوى الأصبع العدوانى، وقد سألها أبوها عن مالها، فقالت : الضَّأن، فقال لها : كيف تجدونها؟ قالت : شر مال... إلخ.

وفى التصريح بتشبيه الرسول عليه السلام بالراعى الذى ينعق بالضأن غض من مكانته، ومخالفة الأدب فى مخاطبته، ومعلوم مدى مكانته - صلى الله عليه وسلم - عند ربه وتلطفه فى مخاطبته.

فلهذا قلب الكلام عن وجهه فحذف من كل جملة من الجملتين شيء ، حذف المشبه به من الجملة الأولى، والمشبه من الثانية، لدلالة الناعق على النعوق بها، ولو

جاء الكلام على وجهه لم يفد ذلك[١].

ومن هذا أيضا، قوله تعالى فى تشبيه المؤمنين والكافرين: (مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كالأعْمَى والأصَمِّ والبَصِيرِ والسَّمِيعِ هَلْ يَستَوِيَان مَثَلاً؟) (هود ٢٤)، فإن الناظر إلى ظاهر التشبيه يتوهم أن نظم هذه الآية قد أتى على غير طريق البلاغة، حيث إن الطريق الأمثل أن يقال: مثل الفريقين كالأعمى والبصير، والأصم والسميع، ليلائم بعض الألفاظ بعضا، وتتحلى بالطباق اللفظى.

وبالتأمل فى الآية نرى أن الكلام على الترتيب الذى جاء عليه تصحيح للمعنى، حيث إن الحق تبارك وتعالى قال: (مثل الفريقين) وقد اقتضى الأمر تفسير (الفريقين) فقال: (كالأعمى والأصم، والبصير، والسميع) ليكون المشبه به قسمين، ليكون المشبه به وفق عدد الفريقين، أحد الفريقين مبتلى، والأخر معافى، حتى يصبح السؤال عن التسوية بينهما مع تضادهما من باب تجاهل العارف، للسؤال عن معلوم، لقصد التوبيخ.

ولو كان التعبير: (كالأعمى والبصير) لدلت هذه الجملة على فريقين، ثم يأتى بعدها: (والأصم والسميع) لكانت هذه الجملة دالة على فريقين آخرين، فيكون قد فسر الفريقين بأربعة، وهذا فساد فى النظم[٢].

٤ - تشبيه المحسوس بالمعقول:

عد بعض البلاغيين منه قوله تعالى: (إنَّها شجرةٌ تخرجُ فى أصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُهَا كأنَّه رءوسُ الشَّيَاطين) (الصافات ٦٤، ٦٥)، وقوله تعالى: (وأَلْقِ عَصَاكَ فلما رَآهَا تهتَزُّ كأنها جَانٌّ[٣] ولَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ) (النمل ١٠) وقوله تعالى حكاية عن نسوة امرأة العزيز فى يوسف عليه السلام: (مَا هَذَا بشَرا إنْ هذا إلا مَلَكٌ كرِيم) (يوسف ٣١).

(١، ٢) مباحث فى إعجاز القرآن ٢٥٨.

(٣) الجن، والجنة: خلاف الإنسان، والجان: الواحد من الجن، وهو الحية البيضاء أيضًا، وعلى هذا فالطرفان حسيان.

وقد كان أول معارضة على هذا النوع من التشبيه على لسان إبراهيم الكاتب، فقد سأل أبا عبيدة فى مجلس الفضل بن الربيع عن معْنَى الوعيد فى قوله تعالى : (إنَّها شجرة تخرجُ فى أصل الجحيم طَلعُهَا كأنه رءوس الشياطين)، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف.

فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيَقْتُلنى والمَشْـرَفِيُّ مُضَـاجِعى ومسنونة زُرقٌ كأنياب أغْوال؟

وهم لم يرو الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يَهُولُهم أو عدوا به. فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل، وكان هذا السؤال سببا فى تأليفه «مجاز القرآن»[1].

وقال الجاحظ فى مقام الدفاع عن هذا التشبيه :

«وليس أن الناس رأوا شيطانًا قط على صورة، ولكنه لما كان الله تعالى قد جعل فى طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجها وكراهتها، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل فى ذلك، رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله فى طباع الأولين والآخرين، وعند جميع الأمم.

ثم يقول : وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين إن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن»[2].

وقال الرازى فى الآية[3] : «وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين، ففيه سؤال، لأنه قيل : إنا مارأينا رءوس الشياطين، فكيف يمكن تشبيه شىء بها؟، وأجابوا عنه من وجوه :

فالأول - وهو الصحيح - أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى

---

(١) نزهة الألباء ١٤٣، وفيات الأعيان جـ/١٣٨.

(٢) الحيوان جـ٦/٢٢١ ط هارون.

(٣) تفسير الرازى جـ٧/٩٩.

الصورة والسيرة، واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند تقرير الكمال والفضيلة فى قوله : (إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كريم) فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة».

ومن هنا نرى أن من تشبيهات العرب ما كانت تقام على العرف والعادة، ولا تتطلب الحقيقة العقلية والصور الواقعية.

فقد جروا فى تشبيهاتهم على ما عهدته أذهانهم وتمثلته أخيلتهم، وللشياطين فى أذهانهم صورة واضحة الملامح للبشاعة والقبح. وتعكس لنا هذه الفكرة نادرة يرويها الجاحظ عن امرأة أخجلته، وذاك أنها أتته يوما وهو على باب داره، فقالت له : لى إليك حاجة وأريد أن تمشى معى، فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى، فقالت له : مثل هذا، وانصرفت.

فسألتُ الصائغ عن قولها، فقال : إنها أتت بفصٍّ وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان، فقلت : يا سيدتى ما رأيت الشيطان، فأتت بك، وقالت ما سمعت[1].

وإذا كانت هذه النادرة تعكس لنا بشاعة خلق الجاحظ، ففيها أيضا انعكاسا لصورة الشيطان كما تمثله الذهن العربى، ومن هنا شبهوا به كل شىء كريه المنظر بشع الصورة.

ومثل ذلك قوله تعالى فى وصف آكل الربا : (الَّذين يَأْكُلون الرِّبَا لا يقومُون إلا كما يَقُومُ الذى يتَخَبَّطُه الشَّيْطانُ من المَسِّ) (البقرة ٢٧٥).

جاء فى الكشاف[2] «لا يقومون إذا بُعثوا من قبورهم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان، أى المصروع، وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والخبط : الضرب على غير استواء كخبط العشواء، فورد على ما كانوا يعتقدون.

---

(١) سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ٢٥٠ لابن نباتة، المطبعة الأميرية ١٢٧٨ هـ.
(٢) الكشاف جـ ١/١٧٦.

والمس : الجنون، ورجل ممسوس، وهذا أيضًا من زعماتهم، وأن الجنى يمسه فيختلط عقله، وكذلك جُنَّ الرجل : ضربته الجن، ورأيتهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات».

فالقرآن يجرى فى فنه التشبيهى على أساس ما كانت تعتقد العرب وتتخيله، لا على ما هو الحقيقة، والواقع العملى.

كما جرى القرآن على اعتقاد العرب فى قوله تعالى (إذَا جاءَك المنافِقون قَالوا نشهد إنَّكَ لَرسولُ الله والله يعلمُ إنَّكَ لَرسوله والله يَشْهَد إنَّ المنافقين لَكاذِبون) (المنافقون ١) فنراه يقيم تكذيب المنافقين على ساس ما يعتقدون، لا على أساس ما هو الحق والواقع أنه رسول الله، وقول المنافقين له : إنك لرسول الله، يتفق مع الحق، ويختلف مع ما يعتقدون، ومن هنا رماهم القرآن بالكذب وحذر عليه السلام منهم[1].

وظلت تلك الصورة التشبيهية تشغل النقاد والبلاغيين وبقى الحكم عليها متفاوتًا.

١ - يقول العسكرى : وليس هذا التشبيه بالمختار، ولو أن بعض الناس يستملحه، لأنه أخرج ما يرى بالعيان إلى ما يعرف بالفكر[2].

وهذا هو رأى جمهرة المتأخرين كالسكاكى، والخطيب، والرازى، والحموى، فإن تشبيه المحسوس بالمعقول عندهم غير جائز.

والسبب فى ذلك : أن المعارف الحسية أساس المعارف العقلية والمعقول فرع المحسوس ، ومعرفة المحسوس أيسر من تمثل المعقول، ولهذا يكون التشبيه فيه جاريًا على غير الأصل المعروف، وهو أن المشبه به يكون أقوى فى وجه الشبه من المشبه - وتشبيه القوى - المشبه - بالضعيف - المشبه به - لا يجوز.

---

(١) انظر دراسة واسعة فى الأمثال فى القرآن وردُّ على الزمخشرى فى هذه الآية فى كتاب للمؤلف بعنوان «من أسرار التعبير فى القرآن - بناء التراكيب» ط دار المريخ - الرياض.

(٢) ديوان المعانى جـ١/ ٣١.

وحيث جاء ذلك فى الأشعار يُؤوَّل على أنه جعل المعقول محسوسًا على سبيل المبالغة، وهذا يستدرجك إلى أن تجعل جميع هذا النوع من باب قلب التشبيه، وبدون التأويل والادعاء لا يجوز(١).

٢ - أجازه الرمانى مع استقباحه، لأن التشبيه عنده على ضربين، تشبيه حسن، وتشبيه قبيح، فالحسن : هو الذى يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانًا، والقبيح ما كان على خلاف ذلك.

وشَرْحُ ذلك : أن ما يقع عليه الحاسة أوضح فى الجملة مما لا تقع عليه الحاسة، والمشاهد أوضح من الغائب، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره، والقريب أوضح من البعيد فى الجملة، وما أُلِف أوضح مما لم يؤلف.

ثم عقب الرمانى على ذلك بأن عاب على بعض شعراءِ عصره قوله :

ولـه غُـرَّةٌ كـلَوْنِ وِصَـال فـوقـهـا طُـرَّةٌ كلون صـدُود

من قِبَل أنه شبه بالأغمض، وما يقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه(٢).

٣ - أجازه ابن رشيق، وقال يرد على الرمانى فيما أخذه على الشاعر :

أما مَا شَرَط فى التشبيه فهو الحق الذى لا يُدفع، إلا أنه قد حَمَل على الشاعر فيما أخذ عليه، إذ كان قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم فى النفس دليله بأكثر مما هو عليه فى الحقيقة كأنه أراد المبالغة، ولعله يقول أو يقول المحتج له معرفة النفس والمعقول أعظم من إدراك الحاسة، ولا سيما وقد جاء مثل هذا فى القرآن الكريم وفى الشعر الفصيح(٣).

وذهب ابن سنان إلى جوازه وعده من قبيل المحسوس بالمحسوس، فقال :

فإن قيل قد مضى فى كلامكم أن ا لمشبه به يجب أن يكون معروفًا واضحًا أبْين من الشيء الذى يُشَبَّه، فما تقولون فى قوله تعالى فى شجرة الزقوم (إنها شجرة تخرُج

---

(١) شروح التلخيص جـ ٣٠٤٢٠٣١.

(٢) شروح التلخيص جـ٣/٣١٢، خزانة الأديب ٢٢٨، نهاية الإيجاز ٥٩.

(٣) العمدة جـ١/ ١٩٥.

فى أَصْلِ الجحيم، طَلْعُها كأنه رءوس الشياطين) ورءوس الشاطين غير مشاهدة؟

قيل: إن الزقوم مشاهد، ورءوس الشياطين غير مشاهدة، إلا أنه قد استقر فى نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزله المشاهد. حتى إنهم إذا شبهوا وجها بوجه الحور العين كان تشبيهًا صحيحًا، وإن كانت الحور لم تشاهد، ولم يستقر فى نفوسهم قبح طلع الزقوم كما استقر فى نفوسهم قبح رءوس الشياطين، فكأن المشبه به أوضح، وفى رءوس الشياطين من المبالغة فى القبح ما ليس فى طلع الزقوم.

وقد قيل فى بعض التفاسير: إن الشياطين هنا الحيات، وعلى هذا القول يسقط السؤال، لأن الحيات مشاهدة[1].

ورأى ابن الأثير أنه ألطف الأقسام الأربعة[2]، لأنه نقل الصورة إلى غير صورة ويقول العلوى: هو من لطيف التشبيهات وأرقها وأدخلها فى البلاغة.

ووجه البلاغة فيه: هو إلحاق المعانى بالأمور المحسوسة المدركة فى الظهور والجلاء فيصير فى الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس، وهذا فى نهاية المبالغة[3].

* * *

ومن اختلاف وجهات النظر تلك بين العلماء، جاء الخلاف بينهم فى وقوعه فى القرآن الكريم، فأنكر بعضهم وقوعه فيه محتجًا بأن الكتاب الكريم جرى على الأصل الأبلغ فى أن الحسى أصل للعقلى.

وقال بعضهم بوقوعه وعد منه قول الله الكريم (إنها شجرة تخرجُ فى أصل الجحيم، طَلْعُها كأنه رءوس الشياطين).

وخلاصة كلام العلماء فى هذه الآية ثلاثة أقوال:

١ - أن الشياطن هم مردة الجن القباح الصور والمناظر، كما وَقَر فى أذهان الناس.

---

(١) سر الفصاحة ٢٤٦.

(٢) المثل السائر جـ٢/١٣٠، والأقسام الأربعة تشبيه صورة بصورة، ومعنى بمعنى، وصورة بمعنى، ومعنى بصورة.

(٣) الطراز جـ ١/٣٠٦.

٢ - أن الشياطين الحيات على جارى تسمية العرب.

٣- أن الشياطين شجر مخصوص منكر الصورة.

وعلى القولين الأخيرين لا يكون التشبيه فى الآية من قبيل تشبيه المحسوس بالمعقول، وعلى القول الأول يكون منه.

ويظهر رجحان من ذهب إلى أن الشياطين هم المعروفون فى أخيلتنا وتصوراتنا، لأن العرب تتمثلهم كما نتمثلهم اليوم على غاية الشناعة والبشاعة، كما كانت تصف الملائكة بالحسن والجمال، فقد تركز فى الطباع قبح الشياطين كما تركز حسن الملائكة، ولذلك يشبه كل متناهٍ فى القبح بالشيطان وكل متناهٍ فى الحسن بالملائكة، وقد قال أبو النجم العجلى فى ابنته ظَلامَّة:

كأن ظلاَّمةَ أختَ شيبانْ يتيمةٌ، ووالداها حَيَّان
العُنْق منها عُطُلٌ والأذنانْ وليس فى الرجل إلا خيطان
وقُصَّة قد شيَّطتها النيران فهى التى يُذْعر منها الشيطان

أفلا تراه قال ذلك وإن لم يره، لما قُرر فى القلوب من نكارته وشناعته[1].

وقد كثر هذا النوع فى الشعر، كقول الشاعر:

ولقد ذكرتُكِ، والظلامُ كأنه يومُ النَّوى، وفؤادُ من لم يَعْشَق

فقد جعل الشاعر يوم النوى أشهر من السواد من الظلام فشبه به، وكذلك القلب القاسى يوصف بشدة السواد، فجعله الشاعر أشهر فى السواد من الظلام فشبهه به.

وقال أبو نواس فى الخمر:

فتمشَّتْ فى مفَاصِلهمْ كتمشِّى البُرْءِ فى السَّقم

وقال آخر:

كأَن انِتضَاء البدر من تَحْتِ غَيْمه نجاةٌ من البأساءِ بعد وُقوع

(١) انظر فن التشبيه جـ٢/٩٦ وما بعدها.

ويسخر شوقى من المشركين، ويهزأ بهم، ويمثل ضلالهم وإخفاقهم تمثيلا بشعًا، فيقول :

فـأَدْبَرُوا وَوُجُـوه الأرض تَلْعَنُهم ... كباطلٍ من جَلَالِ الحقِّ مُنْهَزِم

* * *

وبهذا نرى أنه ليس فى القرآن سوى تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه المعقول بالمحسوس، أما تشبيه المعقول بالمعقول فلا يوجد فى القرآن أصلا، وأما تشبيه المحسوس بالمعقول فى القرآن ففيه الخلاف السابق - ونرجح جوازه لأنه ليس من مطالب الصورة التشبيهية أن توفر إقناعًا عقليًا بقدر ما تثير انفعالات نفسية تتجاوز حدود العقل البسيط.

(ب) تشبيه التمثيل

دعا القرآن إلى الإيمان بالبعث وباليقين بالدار الآخرة، لكن تلك الدعوة لقيت صدودًا من الكافرين، وعنادًا من المشركين، فكان لابد أن يتضمن القرآن من أساليب البيان والتصوير ما يزهدهم فى الدنيا ويرغبهم فى الآخرة، ويحتوى من صور التمثيل ما يصور قصر الحياة الدنيا - التى عظموها بقولهم : ما هى إلا حياتنا الدنيا - ويسمو بالحياة الآخرة ويكشف لهم عن حقيقتها، ويجسم فناء هذا العالم العامر بالجمال والآمال.

وقد وجد القرآن الكريم فى الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهجًا نضرًا، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر، وتذروه الرياح، وجد القرآن فى ذلك شبها بالحياة الدانية، فأطال فى التشبيه مرة، وأوجز أخرى، وساوى بين الطرفين، فكان التشبيه بين بسط وقبض وتساوٍ . فقال سبحانه :

١ - (إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنْزَلْناه من السَّماءِ فاخْتَلطَ به نَبَاتُ الأرض مِمَّا يأْكلُ الناسُ والأنعامُ، حتَّى إذا أخذَت الأرضُ زخرفَها، وازَّيَّنَتْ، وظَنَّ أهلُها أنهم

قادرُون عليها، أتاها أمْرُنا ليلا أو نهارًا، فجعلناها حصيدًا كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأمس) (يونس ٢٤).

٢ - وقال: (واضرب لهم مثلَ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هشيمًا تَذْرُوه الرِّياح) (الكهف ٤٥).

٣ - وقال: (اعلموا أنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد، كَمَثَل غيثٍ أعْجَبَ الكفارَ نباتُه ثم يَهيجُ فتراهُ مُصْفَرًّا ثم يكون حُطامًا) (الحديد ٢٠).

فنجد أن المشبه فى كل الآيات السابقة: حال الدنيا فى إقبالها، ونضرتها، وغرور الإنسان بها، وإسراع الزوال إليها.

والمشبه به: حال النبات وقد اختلط به الماء فنما وازدهر، وزين الأرض حتى تعلق به أصحابه، وظنوا أنه أصبح بمأمن من الآفات، وبمنجى من المهلكات، إذا هو ييبس ويزول، ويصبح كأن لم يكن.

ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من أن كلا منهما ينمو ويَزْهُو حتى يكون فى حالة تَسُر وتَغُر، ثم لا يلبث أن يزول.

ونلاحظ أن المشبه فى الآية الأولى والثانية يمر مرًّا سريعًا خاطفاً - الحياة الدنيا - وفى الآية الثالثة طال عرض المشبه - كما يراه الكفار - فهى لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر فى الأموال والأولاد، وذلك ليؤدى غرضًا، ويؤكد هدفًا، وليقول للكفار: إن هذا الذى تستطيلون أمده فى تصوركم إنما هو قصير زائل، وعرض حائل.

وحينما ننظر إلى وجه الشبه الذى يجمع بين الطرفين نجد فيه كثيرًا من التفصيل الذى يحتاج إلى إمعان فى الفكر وتدقيق النظر.

ففى الآية الأولى مثلا نجد أن المشبه به يحتوى على عشر جمل، وقد دخل بعضها فى بعض حتى كأن الجمل العشرة جملة واحدة، إن وجه الشبه فيها منتزع من مجموع تلك الجمل من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، حتى لو أننا لو

أسقطنا منها جملة واحدة فى أى وضع أخل ذلك بالمراد من التشبيه، وكل تشبيه فيه وجه الشبه على تلك الصفة يسمى «تشبيه تمثيل».

فالتشبيه التمثيلى : هو ما يكون وجه الشبه فيه وصفًا مركبًا منتزعًا من متعدد - أمرين أو أكثر - .

والتركيب المراد عند البلاغيين : هو الصورة المتكاملة من مجموع الألفاظ المستخدمة للكشف عن الغرض المقصود، وهذا أعم من التركيب عند النحاة الذين يقسمون التركيب إلى «إسنادى أو إضافى أو مزجى».

* * *

وإليك بعض الآيات القرآنية التى تزيد التمثيل إيضاحاً وبيانًا :

القرآن الكريم يرى أن أعمال الكفار لا نفع فيها، ولا خير منها، فيصور ذلك بعدة صور مطنبًا مرة، وموجزًا أخرى، ليستقر المعنى فى النفس، ويحدث أثره فى القلب فيقول :

١ - (والذين كفرُوا أعمالُهم كسراب بِقيعَة[1] يَحْسَبه الظمآن ماءً حتَّى إذا جاءَه لَمْ يَجِدْه شيئًا وَوَجد الله عنده، فوَفَّاه حسابَه والله سريعُ الحساب - أو كَظلماتٍ فى بحرٍ لُجِّىٍّ يَغْشَاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ، ظلماتٌ بعضُها فوق بعض إذا أخرَجَ يَدَهُ لم يكَدْ يراها) (النور : ٣٩، ٤٠)، ففى الآية المشبه واحد والشبه به اثنان.

فالمشبه : هيئة أعمال الكفار التى تظهر فى أعينهم جميلة، لكنها فى الحقيقة لا خير فيها ولا ثواب عليها.

والمشبه به : (ا) هيئة السراب بصحراء واسعة يظنه الظمآن ماء، فيجهد نفسه فى الذهاب إليه، فلا يجد هناك شيئًا.

وجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الأمل المطمع والنهاية المؤيسة.

---

(١) القاع والقيعة : المستوى من الأرض .

والمشبه به : (ب) صورة الظلمات الكثيفة فى البحر المتلاطم الأمواج المتداخل بعضه فى بعض المظلل بالسحاب.

وجه الشبه : صورة أشياء متراكمة وخلت من الفائدة.

إن النسق اللغوى والنظم الإلهى يضفى حياة على الصورة التشبيهية، ويكسبها ظلالا إيحائية لا يستطيع طرفى التشبيه وحدهما أن يقوما بها، فالنظم الإلهى والتركيب اللغوى يبرز حالة نفسية حركية تصور معاناة سائر فى صحراء قاحلة تناوشه أحاسيس الظمأ ويحاول تهدئتها بقرب إدراكه الماء الذى يتكشف فى نهاية الطريق عن وهم خادع.

وقوله تعالى : (يحسبه الظمآن) يشير إلى أن الظمآن أشد حرصًا عليه وتعلق قلب به، ولو قيل : يحسبه الرائى ماء، ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغًا، لكن نظم القرآن أبلغ[1].

وقوله : (حتى إذا جاءه) لفظ (حتى) قد يثير أحاسيس عديدة لرحلة مضنية وقد آن لصاحبها أن يروى غلته بعد أن أتى عليه طول الطريق، ثم لفظ (إذا) التى تكون للمفاجأة، والتركيب اللغوى لقوله (جاءه) تعطى إحساسًا بالتلاحق النفسى بين الفعل (جاء) وصاحبه، وبين «الهاء» التى يراد بها هذا الماء المتوهم أو السراب المحقق، وتكون (لم) النافية لنذير اليأس وفقدان الأمل، «ولم يجده» هنا تتصل الهاء بالفعل (يجده) كما اتصلت بالفعل (جاءه) من قبل. هناك أمل يلتصق بالجوانح، وهنا يأس عانق الذات، تصنع أوله «الهاء» فى الأول، وتصنع آخره «الهاء» فى الثانى، ثم تنتصب كلمة (شيئًا) لتكمل صورة العدمية المطلقة[2].

٢ - وقال : (مثل الذين كفروا بربِّهم أعمالهُم كرمادٍ اشتدت به الريحُ فى يوم عاصفٍ لا يقدرون مما كسبوا على شىء) (إبراهيم ١٨).

فقد وجد القرآن فى الرماد الدقيق الذى لا يقوى على البقاء أمام الريح فى يوم عاصف شبها لأعمالهم التى لا أثر لها ولا نتيجة.

---

(١) ثلاث رسائل فى الإعجاز ٨٢.

(٢) فى البلاغة العربية ١٦٩.

٣ - ويقول : (مثلُ ما ينفقون فى هذا الحياةِ الدنيا كمثل ريح فيها صِرٌّ[1] أصابتْ حرْثَ قومٍ ظلموا أنفسَهم فأهلكتْه) (آل عمران ١١٧).

وهذه الصورة المطولة نجد لها صورة موجزة فى قوله تعالى :

٤ - (وقدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا من عمل فجعلناهُ هَبَاءً منثُورًا) (الفرقان ٢٣).

ووجه الشبه فى كل ذلك : الهيئة الحاصلة من وجود أشياء خادعة فى المنظر ولكنها سيئة فى النهاية - فهو هيئة مركبة، لذلك كان من قبيل التمثيل.

* * *

كذلك لعب التمثيل دورًا كبيرًا فى التأثير فى النفس كى تسمح بالمال، وتبذله سخية، تخفيفًا على الطوائف الفقيرة وإسهامًا فى إسعاد طبقات المجتمع الكادح، فالمال عصب الحياة، والحرص عليه فطرة فى النفوس، ولعل صور التمثيل تلك جاءت تلبية لحالات واقعة كان التمثيل يواجهها فى الجماعة المسلمة يومذاك، يقول تعالى :

١ - (ومَثَلُ الذين يُنْفِقون أموالهم ابتغاءَ مَرْضَاتِ الله وتَثْبيتًا من أنفسهم، كمثل جَنَّةٍ برَبْوَةٍ أصابَها وَابلٌ فآتَت أكلها ضعفَين، فإن لم يُصبْها وابلٌ فَطَلٌّ)[2] (البقرة ٢٦٥).

٢ - ويقول : (مثلُ الذين يُنفقون أموالهم فى سبيل الله، كمثل حبَّةٍ أنبَتَتْ سبْعَ سنَابلَ فى كلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّة، والله يُضاعف لمن يَشَاء) (البقرة ٢٦١).

فالمشبه فى كلا الآيتين : حال من ينفق فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ثم يلقى جزاء وافيًا.

والمشبه به فى الآية (١) : حال بستان استقر على مرتفع من الأرض يسقى بماء المطر فجاء البستان بثمره مضاعفًا.

---

(١) الصِّرُّ : برد يضرب النبات والحرث.

(٢) الأكل : الثمر، الطل : المطر الخفيف.

والمشبه به فى الآية (٢) : هيئة الحبة أنبتت سبع سنابل وفى كل سنبلة مائة حبة.

ووجه الشبه : صورة من يعمل عملا قليلا ثم يجنى من ثماره أكثر.

فهذا التشبيه له أثر فى النفس، ووقع فى القلب، فتبذل النفوس المال راضية مرضية.

ولقد جعل القرآن هذا الثواب العظيم للمنفق، بشرط ألا يداخل الإنفاق رياء أو نفاقًا فيصور حالة من يتصدق لا عن باعث نفسى، ولا وازع حقيقى، فيقول على طريق التمثيل والتصوير :

٣ – (يٰأيها الذين آمنوا لاتُبطِلوا صَدقَاتكم بالمنِّ والأذَى كالذى يُنْفق ماله رئَاءَ الناس ولا يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صَفْوانٍ عليه ترابٌ فأصابَهُ وابل فتركَهُ صَلْدًا لا يقْدِرون على شيءٍ مما كَسَبوا)[1] (البقرة ٢٦٤).

فالمشبه : حال المنفق ماله فى الصدقة رياء وسمعة.

والمشبه به : حال الحجر الأملس وقد غطته قشرة رقيقة من التراب يظنه الناظر صالحًا للزرع والإنبات، لكن وابل المطر لم يلبث أن يزيل هذه القشرة فيبدو الحجر على حقيقته ليس موضعا للخصب، ولا محلا للإنبات.

ووجه الشبه : حالة الشيء تبدو للرائى حسنة ولكن نهايته شيئة.

وبإمعان النظر فى هذه الآية نجدها هى الوجه المقابل للصورة فى الآية الأولى :

فالصدقات التى تبذل ابتغاء وجه الله هى فى الأولى كالجنة فوق ربوة، وفى الصورة المقابلة كحفنة من التراب على حجر أملس.

والوابل مشترك بين الصورتين، ولكنه فى الصورة الأولى يخصب ويمرع، ويصيب الجنة فيمتزج بالتربة فيخرج الثمر أضعافًا ولو لم يصبها وابل، فإن ما فيها من الخصب والاستعداد للإنبات يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها، وفى الحالة

(١) الصفوان : الحجر، الوابل : المطر الغزير، الصلد : الحجر الأملس.

الثانية يصيب الوابل الصفوان فيكشف عن وجه كالح غير صالح للزراعة، ولا قابل للإنبات.

* * *

كذلك كان للتمثيل القرآنى أثر فى كشف خصائص المنافقين، وتصويرهم بأكثر من صورة تثبيتا للفكرة ولَمْحًالها من أكثر من زاوية، فقد كان المنافقون فى المجتمع الإسلامى فى الظاهر مع المسلمين، ولكن سيوفهم وتفكيرهم مع المشركين (وإذا لقُوا الذين آمنوا قالوا : آمَنَّا، وإذا خَلَوْا إلى شَيَاطينهم قالوا : إنَّا مَعَكم، إنما نحن مستهزئون) (البقرة ١٤)، وهم يحسبون أنهم بذلك يحسنون صنعًا لأنفسهم ويختارون لها أحسن المنازل، وأقوم السبل، فأتى القرآن الكريم فافتضح سرهم، وصورهم فى صور منكرة بطريق التمثيل، فيقول :

(مثَلُهم كمثلِ الذى اسْتوقَد نارًا فلمَّا أضَاءَتْ ما حَوْله ذَهَب الله بنُورهم وتَرَكَهم فى ظلماتٍ لا يبصرون، صُمٌّ، بُكْمٌ، عُمْى، فهم لا يَرْجُعون - أو كصَيِّبٍ من السماء فيه ظلماتٌ ورعْدٌ وبَرْقٌ يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصَّواعِق حَذَر الموت) (البقرة ١٧ - ١٩ البقرة).

فالمشبه : حال المنافقين يتظاهرون بالإيمان ثم يعودون إلى ما كانوا عليه من الكفر.

والمشبه به : (١) حال السارى الذى يوقد النار ليلاً فيعرف طريقه ثم لم يلبث أن يذهب الضوء ويشمل المكان ظلام دامس، فصار يتخبط فى السير ويتردد فى الخطو.

ومما زاد هذا التمثيل روعة النسق اللغوى والنظم الإلهى، فقد قال تعالى : (ذهب الله بنورهم) ولم يقل «بضوئهم» لأن الضوء هو زيادة فى النور، فلو قال : (بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالكل، لأن الإضاءة فرط الإنارة، دليل ذلك قوله تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) (يونس ٥).

ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من وجود هداية قصيرة ثم يعقبها حيرة.

والمشبه به : (ب) حال السائر تحت صيب من المطر وقد صحبه ظلمات ورعد وبرق، أما الظلمات فتحول بين السائل وبين الاهتداء إلى سواء السبيل، وأما الرعد فمتناه فى الشدة إلى درجة أنه يتقيه بوضع أذنه، وأما البرق فيكاد يخطف الأبصار، فصاروا يمشون إذا أصابهم البرق، ويقفون حين ينطفئ النور.

ووجه الشبه : صورة قوم عُرضت عليهم أسباب الهداية فانتفعوا بها قليلا ثم ما لبثوا أن أحاط بهم الظلام والضلال.

* * *

ومن هنا ندرك أن كل تمثيل تشبيه دون عكس، إذ التمثيل مختص بما كان وجه الشبه فيه منتزعًا من متعدد.

وللتمثيل موقعان :

١ - أن يكون فى مفتتح الكلام قياسًا موضحًا، وهو كثير جدًّا فى القرآن الكريم، مثل قوله تعالى : (مثل الذين يُنفقُون أموالَهم فى سبيلِ الله كمثل حبة أنْبَتَتْ سَبْعَ سنابلَ فى كل سنبلة مائةُ حبَّة).

٢ - ما يجىء بعد تمام المعنى لإيضاحه وتقريره، فيشبه البرهان الذى تثبت به الدعوى، كقول أبى العتاهية :

تَرْجُو النجاةَ ولم تَسلُكْ مسالكَها إنَّ السفينة لا تجْرِى على اليَبَس

تأثير تشبيه التمثيل وصلته بالنفس

هناك أسباب جعلت للتشبيه هذا التأثير، واقتضت أن يصنع فى النفوس صنيع السحر، وقد كان لعبد القاهر الجرجانى الفضل فى تقرير ذلك قبل أن يقرره علماء النفس والتربية بزمن بعيد[1]، ومن تلك الأسباب :

(١) انظر مواقع التمثيل وتأثيره فى أسرار البلاغة ٩٢ وما بعدها.

١ - إن التشبيه التمثيلى ينقل النفس من الخفى إلى الجلى :

فالمعروف أن العلم المستفاد من طريق الحواس يفضل العلم المستفاد من جهة الفكر والعقل، وقد قيل فى الأثر : «ليس الخبر كاليقين، وليس الظن كالمعاينة»، كما أن العلم المستفاد من طريق الحواس أسبق إلى النفس من العلم المستفاد من طريق العقل والروية، لأن العلم يجىء أولا من طريق الحواس، ثم من جهة العقل والفكر.

نتأمل حسن التشبيه وقوته وتأثيره فى قوله تعالى : (والذين كَفَرُوا أعمالُهم كسرابٍ بقيعةٍ يحْسَبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئًا) (النور ٣٩) فلو أن القرآن اختار التعبير الذى لا تصوير فيه وقال مثلا : «والذين كفروا أعمالهم غير مثمرة» لم يكن له فى النفس هذا الأثر القوى الذى يصور عدم جدوى هذه الأعمال، إذ يقرنه بشىء نراه بأعيننا ونكاد نؤمن بوجوده إيمانًا لا يتسرب إليه الشك، فالصورة التى أتى بها القرآن تزيدنا اقتناعاً بعدم جدوى أعمالهم.

وقد صور القرآن كثيرًا من الأمور المعنوية بالأشياء الحسية لهذه الغاية، وعودة إلى تشبيهات القرآن المعقول بالمحسوس نجد ذلك واضحًا.

ويقول أبو تمام يمدح سيف الدولة :

فـإنْ تَفُق الأنَـام وأنتَ منهـم فـإن المِسْك بعضُ دَم الغَـزَالِ

فقد شبه الممدوح فى امتيازه عن بنى جنسه إلى حَدٍّ بطل أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة، بل صار أصلاً بنفسه، بحال المسك فى امتيازه على جميع الدماء التى تجرى فى الغزال، حتى صار كأنه جنس مستقل بنفسه، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من تفوق الفرع على أصله.

وقد ألحق فى هذا التشبيه العقلى بالحسى، فأبرز المشبه العقلى فى صورة أنست بها النفس واطمأنت، لأنها نقلت إلى ما هى به أعلم - وهو الحس - كما أنه قد احتج لدعواه، وأبان أنّ لما ادَّعاه أصلا فى الوجود، وبرأ نفسه من صفة الكذب، وباعدها من سَفَهِ المقدم على غير بصيرة، والتوسع فى الدعوى بغير بينة.

ويقول أبو تمام أيضًا :

وطولُ مُقام المرءِ فى الحىِّ مُخْلِقٌ   لـديباجَتَيْـه فـاغْـترب تَتَجـدَّد
فإنى رأيت الشمسَ زِيدَت محبَّةً   إلى الناس أنْ ليْسَتْ عليهم بسَرْمَد

شبه أبو تمام حاله فى إيثاره الإقامة حينًا والاغتراب حينًا، بحال الشمس تطلع نهارًا وتغيب ليلا، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من عرفان فضل الشيء ومكانته لظهوره حينًا واختفائه حينًا.

وقال مجنون ليلى :

فأصبحتُ من لَيْلى الغَداةَ كقابضٍ   على الماء خانتْهُ فُروجُ الأصابـع

فقد خاب الشاعر فى ظنه أنه يتمتع بها ويسعد بوصلها، فشبه حالته تلك بالقابض على الماء وقد خانته فروج الأصابع.

فكل تلك الشواهد تصويررائع للمعقول بالمحس، لتقوية المعنى وتأكيده فى النفوس، كما هو معلوم وثابت من أن المشاهدة ذات أثر فعال فى النفوس، حتى مع العلم بصدق الخبر، وعدم تسرب الشك إليه، وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، فقال : (وإذْ قال إبراهيم رَبِّ أرِنِي كيف تُحيى الموتى، قال أوَلَمْ تُؤمن؟ قال : بَلى، ولكن لِيَطْمئِن قَلْبى) (البقرة ٢٦٠).

٢ - أن التمثيل يجمع بين أمرين متنافرين مختلفين :

وبيان ذلك : أن التباعد بين الشيئين كلما كانت أشد كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب، وأن تطلب الشبه للشيء من غير جنسه وشكله، والتقاط ذلك له من غير مَحَلِّه، حتى يصيرا به مثلين متباينين، ومؤتلفين مختلفين حتى إن الصورة الواحدة ترى فى السماء والأرض، يقول الشاعر الجاهلى قيس بن الخطيم :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى   كعنقـود مُـلاَّحيَّـة حـين نَـورا[1]

(١) الثريا : مجموعة من النجوم متقاربة الشكل والمكان، الملاحى بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها : عنب طويلب أبيض. نور الزرع : أدرك نضجه.

شبه الشاعر الثريا فى الصبح بعنقود العنب وقت إدراك نضجه ووجه الشبه : هيئة اجتماع صور بيض مستديرة صغار الأحجام فى مرأى العين.

ومن صور التباعد بين الطرفين أن يكون المشبه به خياليًا - وهو ما لا يتصور وجوده إلا فى الذهن والخيال - كقول أبى بكر الصَّنَوْبَرِى :

كلُّنـا بـاسِطُ اليَـدِ نحـو نَيْلُوفَـر نـدِ
كـدبـابيس عسجـد قُضْبُها من زَبَرْجد(١)

شبه أزهار النيلوفر الصفر على سيقانها الخضر بدبابيس ذات رأس كالكرة من الذهب وقضبها من الزبرجد الأخضر، ووجه الشبه : الصورة الناتجة من وجود شيء مستدير أصفر على حامل مستطيل أخضر.

وعلى هذا يجرى قول ابن المعتز:

كأنَّ عيون النَّرْجَس الغَضِّ حوْلَنا مَـداهنُ دُرٍّ حَشْـوُهُنَّ عَقِيقُ(٢)

فقد شبه زهر النرجس الغض بمداهن الدر يتوسطها العقيق، وهى صورة طريفة لا توجد إلا فى الخيال، لإبراز المشبه فى صورة الطريف البديع، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من اجتماع أجرام صغار بيض مستديرة متلاصقة على شكل دائرة تحيط بدائرة أخرى حمراء.

وقد يبرز المشبه فى صورة أنيقة تخلب اللب، وتبهر العقل، ويظهر فى صورة يندر حضورها فى الذهن عند حضور المشبه، كقوله تعالى : (والقمرَ قَدَّرْناهُ منازِل حتى عاد كالعُرْجُون القديم)، فصورة «العرجون القديم» غير نادرة الحضور فى الذهن، بل شائع ومطروق، ولكنها تندر عند استحضار صورة القمر، للبون الشاسع بين الصورتين، فالقمر مسكنه فى السماء، والعرجون مقره الأرض، والقمر مثال العلو الهداية، والعرجون شيء تافه، وشتان ما بين الصورتين.

---

(١) نيلوفر بفتح النون وسكون الياء وفتح الفاء : نبات ينبث فى الماء الراكد فإذا ساوى سطح الماء أورق، وزهره أصفر، وسيقانه خضر كالأنابيب، والعسجد : الذهب، والزبرجد : حجر نفيس وأشهره الأخضر.
(٢) مداهن : جمع مدهن مثل قنفد، وهى قارورة الدهن، عقيق : خرز أحمر.

ومنه قول الشاعر:

ولا زِوَردِيّةٍ تَزْهُو بِزُرْقَتها بين الرِّياض على حُمْر اليواقيتِ
كأنها فوقَ قامات ضَعُفْنَ بها أوائلُ النار فى أطْراف كبريت[1]

كان المناسب للشاعر أن يشبه أزهار البنفسج وهى على سيقانها بما يناسبها من الأزهار، لكنه شبهه بصورة أوائل النار فى أطراف الكبريت عند شبوبها، فالمشبه به غير نادر الحضور فى الذهن، إذ هو منتشر بين الناس، لكنه يندر حضوره عند حضور صورة البنفسج وهى على سيقانها لما بينهما من بعد المواطن، فهذا زهر نَدِيّ، وذاك لهيب محرق.

يقول عبد القاهر[2] تعليقًا على غرابة هذا التشبيه: «لأنه إذ ذاك مُشبَّهٌ لنبات غض يرف[3]، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف[4]، بلهب نار مستولٍ عليه اليَبَس وباد فيه الكَلَف[5] ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه، وخرج من موضع ليس بمعدن له، كانت صبابة النفوس به أكثر، وكان بالشغف منها أجدر».

وتارة يتوهم فى المشبه اجتماع الضدين، كأن يجعل الشيء تارة نارًا، وأخرى ماء، كقول الشاعر:

لست ذَا ذِلّةٍ إذا عضَّنى الدهـ ـر ولا شامخًا إذا واتانى
أنا نارٌ فى مرتَقَى الحاسد، ماءٌ جارٍ مع الإخوان[6]

---

(١) لازوَرْدية بكسر الزاى وفتح الواو وسكون الراء: صفة لموصوف محذوف أى رب أزهار من البنفسج لازوردية، نسبة إلى حجر اللازورد - وهو حجر أزرق، نسبة تشبيهية، تزهو: تتيه، والأكثر مجيئة مبنيًا للمجهول، حمر اليواقيت: من إضافة الصفة للموصوف، والمراد بها إما حقيقة الياقوت الأحمر، وإما الأزهار الحمر على الاستعارة، القامات: سوق النبات، ضعفهن بها: انحنين بها.

(٢) أسرار البلاغة ١١٠.

(٣) يتلألأ، أو يهتز.

(٤) يرق أو يتحرك.

(٥) لون بين السواد والحمرة.

(٦) مرتقى: مرتفع.

فقد شبه نفسه فى نظر أعدائه بالنار فى الإيلام، ومع أصدقائه بالماء فى اللطف والصفاء، واجتماع النار والماء فى شيء واحد مما يحرك فى النفس قوى الاستجسان.

وليس كل جمع بين شيئين متباعدين مختلفين فى الجنس يحالفه التوفيق والسداد، ويحظى من النفوس بحسن القبول، لأنه إنما يكون مقبولا حيث يصيب الآتى به شبهًا صحيحًا معقولا بين المختلفين، ولا يجد الملاءمة بينهما مذهبًا صحيحًا وسبيلا مستقيما، أما أن يَستكره الوصف ويروم أن يصوره حيث لا يتصور فليس بمقبول، ولا بمستحسن، وحينذاك يكون كالصائغ الأخرق يضع تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه، ولا يقبلانه، حتى تخرج الصورة مشوهة مضطربة، تنبو عنها العيون، ولا ترضى عنها الأذواق السليمة.

وليست وظيفة المشبِّه أن يضع حرف التشبيه بين شيئين ليلحق أحدهما بالآخر من غير تلاؤم واتفاق بينهما، بل وظيفته الحقيقية هى أن يظهر وجه الشبه ويبيِّنه، ولا يُمكنه بيان ما لا يكون، وتمثيل ما لاتتمثله الأوهام والظنون[1].

٣ - إن التشبيه التمثيلى يحتاج إلى الفكر، وإعمال الروية، وتحريك الخاطر[2]:

فمن المركوز فى الطباع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب، أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقفه من النفس أجل وألطف.

---

(١) البلاغة التطبيقية ص ١١٢.

(٢) انظر فى هذا أسرار البلاغة ١١٨ وما بعدها. وقد تحدث عن الغموض فى الشعر، وقسمه إلى ما سببه الخطأ فى الأسلوب أو الفكرة ورفضه، وإلى ما سببه دقة الفكرة وعمقها فأشاد به، وقد عده أحد الباحثين بذلك أول واضع لأصول الرمزية فى الأدب العربى - وهو مذهب الغموض والإبهام الذى يرى المتعة والجمال فى الصور والتعبيرات الضبابية، والابتذال والهوان فى الوضوح وفى تسليط الأضواء كلها على الحقيقة.

«انظر دراسات فى الأدب المقارن جـ٢/٣٣، ٤٠»

وقد سمى الدكتور زكى مبارك هذا النوع من الصور التى تحتاج إلى دقة الفكر وتحريك الخاطر «البيان المعقد» الذى قيل فيه «إن من البيان لسحرا» والذى قيل فيه: «شيئان لا نهاية لهما: البيان والجمال» وفى الناس من يفتنه إشراق الديباجة، وتخلبه رشاقة الأسلوب، كما يسحره الجبين المشرق، ويضله القد الرشيق.

والتعقيد الذى أعنيه غير التعقيد المعروف فى علم المعانى، فلست أريد اللبس والغموض حين اتحدث عن البيان المعقد»، كما لا أريد الوجوه الملتوية حين أتكلم عن «الجمال المعقد» وأنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم والأسلوب الجميل، قوة فى التأثير يحار فى تعليلها اللبيب، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحى الشياطين، ومن أقدر من الشياطين على العبث بالعقول»! =

يقول المتنبى يرثى والدة سيف الدولة :

ولو كان النساءُ كمنْ فَقَدْنا لفُضِّلَت النساءُ على الرجال
وما التأنيثُ لاسم الشمس عَيْبٌ ولا التذكير فخرٌ للرجال

فهذا احتجاج لتفضيل المرأة على الرجل بحجة لم يسبق إليها[1]، يقول : لو كانت النساء كمثل والدة سيف الدولة فى كمال الصفات لفضلن على الرجال، لأن الشيء لم يكن شريفًا أو غير شريف لتأنيث اسمه أو تذكيره بل يثبت الشرف للمسميات من حيث أنفسها وأوصافها لا من حيث أسماؤها، فرب تأنيث يقصر التذكير عنه ولا يبلغ مبلغه، والمثل فى ذلك الشمس والقمر، فالشمس مؤنثة والفضل لها، والقمر مذكر وهو لا يعادَل بها، فالشمس أشمل نورًا، وأكثر ظهورًا، وهى مؤنثة، والقمر أقل نورًا وهو كثير التنقل، ويصيبه المحاق، وهو مذكر.

ويقول مخاطبًا سيف الدولة بعد هذا، فقال :

رأيتُك فى الذى أرَى مُلُوكًا كأنَّك مُستقيمٌ فى مُحال[2]

يقول : أنت تفضل الملوك كفضل المستقيم على المعوج.

وقد انتقد أبو الحسن محمد بن أحمد الشاعر هذا البيت أمام سيف الدولة، وكان المتنبى حاضرًا وكان نقده منصبًا على أن المحال ليس ضد المستقيم، بل ضده المعوج، فقال سيف الدولة، فما كنت تقول؟ قال : كنت أقول : كأنك مستقيم فى اعوجاج، قال : فما تفعل فى البيت الذى يليه :

فإنْ تَفُق الأنامَ وأنتَ منهم فأن المِسكَ بعضُ دَم الغَزَال

= والبيان المعقد هو ذلك النوع الذى تسكن إليه القلوب وتحار فى تعليله العقول، هو ذلك النوع الذى يقرؤه سواد الناس فيفهمونه، ثم تقرؤه الخاصة يفتنون به، ويحارون فى تعليل حسنه، ثم لا يحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال». (انظر الموازنة بين الشعراء ٤٦، ٤٨).

(١) يقول ابن الأثير : فلو عاش امرؤ القيس، ثم مات، ثم عاش، لما أداه فكره إلى تدقيق النظر فى هذا المعنى الذى أورده المتنبى فى قوله.. وعدَّ منها هذين البيتين «الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ص ٤١٠».

(٢) المحال : المعوج، والمحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه.

قال : كنت أقول :

فإن البَيْضَ بعضُ دم الدَّجاج

فضحك سيف الدولة، ثم ضرب بيده على الأرض، وقال : حسن، مع هذه السرعة، إلا أنه يصلح أن يباع فى سوق الطير لا مما يمدح به أمثالنا يا أبا الحسن.

وقال النابغة يمدح النعمان بن المنذر :

فإنَّك كالليل الذى هو مُدْرِكى وإن خلتُ أن المنتآى عنكَ واسعُ

يصور النابغة سلطان النعمان وسعة نفوذه، وأنه لا يفلت من قبضته هارب، فشبهه بالليل فى وصوله إلى كل مكان، وإيثار النابغة لليل على النهار مع أنه بمنزلة الليل فى وصوله إلى كل مكان دليل على أنه قد رَوَّى وفَكَّر فاهتدى إلى حالة إدراكه - وقد هرب منه - حالة سخط وغضب، والليل لما فيه من رهبة وخوف أنسب بمقام الرهبة والخوف من النهار الذى فيه من وضوح الرؤية التى تَسُر وتؤنس. . .

ولتأكيد هذا يقول عباس بن الأحنف :

نعمة كالشمس لما طلَعَتْ بثَّتْ الإشراقَ فى كـل بلد

وذلك لأنه قصد من تشبيه النعمة بالشمس أنها تعم الأقطار، وتصل إلى كل مكان، وهو نفس ما قصده النابغة من تشبيه النعمان بالليل، إلا أن النعمة لما كان تَسُر وتُؤْنس، انتزع الشبه لها من الشمس لدلالتها على ذلك، ولو أنه انتزعها من الليل مراعيًا وصوله إلى كل مكان لأخطأ خطأ فاحشًا، لأن الليل يُرهب ويخيف بخلاف الشمس، فلكل مقام مقال.

ويقول عمرو بن لجأ التيمى فى مدح آل المهلب بن أبى صفرة :

آلُ المـهـلَّب خُـوِّلُـوا شَرَفـا ما حَازَه عـربىٌّ، لا، ولا كـادَا
لو قيل للمجد : جِدْ عنهم وخَلِّهم بما احتكَمْتَ من الدنيا، لَمَا حَادَا
إن المكـارم أرواحٌ يكـونُ لهـا آلُ المَهلبِ دون الناس أجسادا[1]

(١) خولوا : مُلِّكُوا، جِدْ عنهم : مل عنهم.

فالشاعر يشبه المكارم تحل فى بنى المهلب لاتعدل عنهم بالأرواح تحل فى الأجساد لا ترحل عنها، ، ووجه الشبه : أن كلا حل فيها لا غنى له عنه ولا قيام له إلا به.

ويقول ابن الرومى مصورًا حاله وقد رام العدو تصغيره والازدراء به، فيأبى فضله إلا ظهورًا، بحال الشهاب من النار يُخْفَض وهى ترتفع، فيقول :

ثم حاوَلْتَ بالمُثَيْقيل تَصْغيـ ـرى فما زِدْتَنى سوى التعظيم
كالذى طَأطأ الشِّهاب ليخفَى وهو أدْنى له إلى التَّضْريم

فالذى يخاطبه ابن الرومى كان قد أغرى به شاعرًا هجاء يسمى : محمد بن يعقوب المعروف بمثقال، ليهجوه بأقذع الهجاء، فلم يَحُطّ ذلك من مكانة ابن الرومى، بل كان معوانًا على إظهار فضله، وإبراز مزاياه. ووجه الشبه : هو الهيئة الحاصلة من محاولة إخفاء الشيء الظاهر بطريقة تؤدى إلى عكس المراد.

فالتشبيهات تلك، لم تكن الطرافة فيها آتية من جهة أن قائلها قد ابتدع بينهما وجه شبه لم يكن له وجود فى الواقع، بل لأن وجه الشبه كان موجودًا فعلا، ولكنه كان من الدقة واللطف والخفاء بحيث لا ينكشف إلا ببذل مجهود فكرى.

اختلاف الأذواق فى قبول التشبيه
وخلود تشبيهات القرآن

اقتضت ظروف العرب، ومعيشتهم القاسية طولَ الترحل، والإقامة فى الصحراء فكانوا إذا أقبل الليل، وأظلم الجو، تخيروا جبلا عاليا وأوقدوا فى قمته نارًا، تهدى الضال وتؤنس السارى، حتى إذا لجأ إليها وجد عندها الأمن والقِرَى.

تعرف القافلة فضل هذا حين تضل فى الصحراء فى الليالى الشاتية التى يغطى السحاب نجومها، وحين تغيب معالم الطريق، وتختفى دروبه، فإذا بدت هذه النار وسط هذا الظلام الحالك، هدأت النفوس، وأنست، وضمنت الراحة والقرى.

هذا الجبل الموقد فى قمته النار، وتلك الصفة الشائعة لدى العرب، جعلتها الخنساء لأخيها صخر مثلا، فقالت :

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُداةُ به   كأنه علمٌ في رأسه نارُ

فهذا التشبيه عندما يسمعه العربى يطرب له، ويترنح لهذه الصورةالتى قُصد منها تمجيد صخر.

لكننا اليوم لا نشعر بجمال تلك الصورة، فكم من معاصرينا خَبَر طول الرحلة فى الصحراء، أو عانى السير فيها، أو حدثته نفسه ليقوم بجولة طويلة ليتعرف على حياة أهلها وعاداتهم؟ ولهذا لا يُحسُّ الحضرى هذا التشبيه، وما فيه من معانى المجد والفخار، كما كان يحسه العربى، وأصبحت تلك التشبيهات وأمثالها – مما لا نشاهدها ولا ننفعل بها –تَردُ تقليدًا ومحاكاة،وهما لا يغنيان فى التوضيح وحسن الصورة.

ومثله قول عنترة يصف شجاعته:

يَدْعُون عنترَ والرماحُ كأنَّها   أَشْطَانُ بئر فى لَبان الأدْهَم

فهو يصور شجاعته بأن القوم ينادونه، ويستغيثون به وقت اشتداد الملحمة وقد أصابت الرماح الطويلة صدر فرسه، فصارت فى جسمه لكثرتها وطولها تشبه حبال الدلاء المدلاة فى البئر لرفع الماء.

فالتشبيه فى البيت بَيِّن فيه أثر البيئة، والحضرى لا يرضى ذوقه هذا التصوير البدوى، إذ هذه الصورة تكاد تكون معدومة فى عصره، بينما هى فى عصر عنترة كان لها شأن وأى شأن.

فقد كانت الحياة الجاهلية بعيدة عن التكلف، خالية من التعقيد فى مظاهرها، من مأكل وملبس ومسكن، فالمناظر التى تحيط بهم أمور فطرية كالكواكب، وبعض الحيوان وقليل من النبات، ومرافق حيوية، كالجفنة والرحى، أو وسائل حربية، كالسهم والسيف.

ثم هى حرة طليقة لا تخضع لقانون، ولا تتقيد بنظام، وقد خلت من العلم والفلسفة، فلم ترهق العقل، ولم تكلفه الإمعان فى البحث، والغوص إلى حقائق الأشياء. وهى حياة طبيعية. فلا قصور فخمة، ولا أبنية ضخمة، ولا أشجار

باسقة، يأكل العربى فيها لحم الماشية ويشرب لبنها، ويلبس من أصوافها وأوبارها وأشعارها.

فطبيعى إذن أن يكون ما يجيش فى صدورهم من معان، وما يلابس أفكارهم من أخيلة، صورة لحياتهم، فلا أثر فيه للتعقيد، ولا ظل للتكلف، حتى إن القصيدة من قصائدهم، لا تستدعى كد الذهن، ولا إرهاق الفكر.

فالعربى الجاهلى إذا اشتكى الوجد - مثلا - لا يزعم أنه أضحى كالخلال، أو صار مثل الخيال، وعلى هذا سائر معاينهم فى مدحهم ووصفهم.

وأما ما قد يطالع الناظر فى أدبهم مما يحتاج إلى الدقة والعمق، فهو شىء جاء عفو الخاطر، أو خاضع للتنقيح والتهذيب، كقول النابغة:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

على أن ذلك قد يكون أثرًا لظل الحضارة التى كان يحياها مع النعمان فى الحيرة. ومع ذلك فالبداوة ظاهرة فى البيت فإضافة الليل إلى الممدوح - على مابه من سواد وظلمة وقياسه به، لا يستسيغه الذوق الحضرى، ولذلك أخذه سلم الخاسر فنفى عنه هذ المغمز وقال:

وأنت كالدهر مبثوثا فى حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكتَ عنان الريح أصرفها فى كل ناحية ما فاتك الطلب

فحياتهم قضت عليهم ألا يذهبوا فى صوغ المعانى إلى إزعاج الفكر وحثه على استخراجها من مكان سحيق، ولو أتيح لهم ما أتيح لغيرهم من الحضارة والمدنية لكان لهم من المعانى والأخيلة ما يمحو الفوارق بين هؤلاء وأولئك[1].

كذلك التشبيهات المصنوعة الذى يدرك جمالها فرد دون آخر، كقول ابن المعتز يصف الهلال:

انظرْ إليه كزورَق من فضةٍ أثقلَتْه حمولة من عَنْبَرِ

(١) انظر أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية ٨٢ الشيخ أحمد حسن الباقورى دار المعارف ط ثانية.

فلا يستطيع أن يفهم هذا التشبيه، ويدرك سر حسنه إلا من كان يعيش تلك الحياة المترفة.

وقد قال أحد أنصار ابن الرومى يلومه : لم لا تشبِّه كتشبيهات ابن المعتز[1]؟ فقال : انشدنى مِنْ قوله الذى استَعْجَزْتَنى عن مثله، فأنشده البيت السابق، فقال له : زدنى : فأنشده :

كـأنَّ آزَرْيُـونَها غِبَّ سـماءٍ هَـامِيَـةْ
مَـدَاهنُ من ذهـبٍ فيهـا بَقَايـا غاليـةْ[2]

فصاح : واغوثاه!، لا يكلف الله نفسًا إلا وُسْعها، ذلك إنما يصف ماعُون بيته، لأنه ابن خليفة، وأنا أى شيءٍ أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولى من الناس، فهل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام؟

وقد نشرتْ أيْدى الجنَوب مطارفا من الجو دُكنًا والحواشى على الأرض
يُطرزها قوسُ السحاب بـأخضر على أحمر فى أصفر إثر مُبْيَضّ
كأذيال خَـوْد أقبلتْ فى غلائـل مُصبَّغَةٍ والبعضُ أقْصر من بعض

وقوله فى صانع الرقاق :

ما أَنْسَ لا أَنْسَ خبازًا مررتُ بهِ يَدْحو الرقاقَةَ مثل اللَّمح للبصر
ما بين رُؤيتهـا فى كفِّه كُـرةً وبـين رؤيتها قَـوْرَاء كالقمـر
إلا بمقـدار مـا تنـداحُ دائـرةً فى لُجَّةِ الماء يلقى فيه بالحجر

فليس لنا أن نقدم ابن المعتز لأنه استطاع تشبيه الآزريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية، وليس لنا أن نقدم ابن الرومى لأنه أجاد وصف الخباز وهو يدحو الرقاقة، فإن السبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التى أتيحت لكل من الشاعرين، ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، فكل منهما وصف ما نظره عليه

(١) يشك ابن رشيق فى هذه القصة، انظر العمدة جـ ٢/١٨٤.

(٢) الآزريون : زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة، غب : بعد، غالية : نوع من الطيب أسود اللون، هَمَى الدمع : سال.

وقع، وما به انفعل فى بيئته.

وهذا يذكرنا بالشاعر على بن الجهم[١] الذى نشأ بخراسان، ولما وفد على المتوكل ببغداد أنشده فى مدحه:

أنتَ كالكلب فى حِفاظِك للوُدْ ... دِ وكالتَّيْس فى قِراع الخُطوب
أنت كالدَّلو لا عدِمْناكَ دلوًا ... مَن كبار الدلاء كثير الذَّنوب

فهَمَّ بعض الحاضرين بقتله، لكن الخليفة قال: خلِّ عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، وأنس فى الشاعر قوة الشاعرية وسحر البيان، وطبعًا أصيلًا فى إنشائه، يشوب ذلك أثر البادية، وميسم البيئة القاسية، فالشاعر لم ير المدينة، ولم تصقله الحضارة، فأسكنه قصرًا على شاطئ دجلة فيه بستان يتخلله نسيم لطيف يغذى الأرواح، والجسر قريب منه، فكان يخرج إلى محلات بغداد فيرى حركة الناس ومظاهر مدينتهم، ثم استدعاه بعد ذلك، وقد صقلته الحضارة، وهذبته المدنية، فأنشده رائيته البديعة وقد بدت فيها روح الرصافة وعبير بغداد، وكأنه فى سالف دهره ما شبه بالكلب، ولا مثل بالتيس، ومطلعها:

عيُونُ المها بَيْنَ الرصافَة والجسْر ... جَلَبْنَ الهَوَى من حيثُ أدْرى ولا أَدْرى
أعَدْنَ الشوق القديم ولم أكن ... سلَوْتُ ولكن زدْنَ جمرًا على جمر
سَلِمن وأسْلَمْنَ القلوب كأنما ... تُشَك بأطراف المثقفَة السمْر

* * *

وقد كان لابن رشيق يد فى الكشف عن الترابط بين التشبيه وبين نفسية السامع، فقد لاحظ أن التشبيه قد يكون مقبولا وبديعًا فى مكان وزمان وغير مقبول تنفر منه الأذواق، وتنبو عنه الطباع فى مكان وزمان آخرَيْن، كما بين أن طريقة التشبيه عند العرب القدماء قد خولفت إلى ما هو أليق وأشكل حسب العصر والأوان، يقول[٢]:

---

(١) هو أبو الحسن على بن الجهم القرشى النسب أحد الشعراء المجيدين نشأ بخرسان وانتقل منها إلى العراق فسكن بغداد واختص بالمتوكل ولكنه كان ثمامًا فسجنه ومات مقتولاً سنة ٢٤٩ هـ، يطلق الذنوب على ما فى الدلو من الماء.

(٢) العمدة جـ١ - ٢٠٤ - ٢٠٦.

أتت القدماء بتشبيهات رغب المولدون إلا القليل عن مثلها استبشاعًا لها، وإن كانت بديعة فى ذاتها، مثل قول امرئ القيس:

وتَعْطُو برخْصٍ غير شَثْن كأنه أساريعُ ظَبْى أو مساويكُ إسْحِل[1]

فالبنانة شبيهة بالأسروعة - وهى دودة تكون فى الرمل، فهى كأحسن البنان لينا، وبياضًا، وطولا واستواء، ودقة، وحمرة رأس، كأنه ظفر قد أصابه الحناء، إلا أن نفس الحضرى المولد إذا سمعت قول أبى نواس فى صفة الكأس:

تعاطيها كفٌّ كأن بنانَها إذا اعترضَتْها العينُ صفٌّ مدَارى

أو قول على بن العباس الرومى:

أشار بقُضبانٍ من الدّر قُمِّعَتْ يَواقيتَ حُمْرًا، فاستباح عَفافى

أو قول عبد الله بن المعتز:

أَشَرْنَ على خوفٍ بأغصَان فضَّةٍ مُقَوَّمةٍ أَثْمارُهُنَّ عَقِيق

كان ذلك أحب إليها من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرئ القيس، وإن كان تشبيهه أشد إصابة.

وقد استبشع قوم قول الآخر يصف روضًا:

كأنَّ شَقَائق النُّعمان فيه ثيابٌ قد روين من الدِّماء[2]

فهذا وإن كان تشبيهًا مصيبًا، فإن فيه بشاعة ذكر الدماء، ولو قال من العصفر - مثلا - أو ما شاكله لكان أوقع فى النفس، وأقرب إلى الأنس.

وأجرى الناس هذا المجرى قول صريع الغوانى - على أنه لم يقع لأحد مثله - وهو:

---

(١) تعطو: تتناول، ورخص: لين، شثن: غليظ، أساريع: دود ناعم، ظبى: مكان، إسحل: شجر يتخذ منه المساويك.

(٢) شقائق النعمان: نبات أحمر الزهر وهو للواحد والجمع، وأضيفت إلى النعمان بن المنذر، لأنه جاء إلى موضع وفيه من الشقائق ما راقه، فقال: ما أحسن هذه الشقائق!، احموها، فكان أول من حماها ونسبت إليه وعرفت به، وسميت بهذا لحمرتها تشبيها لها بشقيقة البرق.

فغَطَّتْ بأيديها ثمارَ نُحُورها كأيْدِى الأسَارَى أثْقَلَتْها الجوامعُ

فهذا تشبيه مصيب جدًّا، ألا أنهم عابوه.

ومثله قول أبى مِحْجن الثقفى فى وصف قَيْنة:

تـرفعُ الصـوتَ أحيانًـا وتَخْفضُـه كما يَطِن ذُبـابُ الرَّوضَـة الغَردُ

فأى قينة تحب أن تشبَّه بالذباب؟.

وكما اختلفت الأذواق فى قبول التشبيه لاختلاف البيئة، اختلفت أيضًا لاختلاف شخصية الأديب، وتضلعه فى اللغة، وتذوقه للأدب، وإدراكه المعنى المراد.

استنشد سيف الدولة أبا الطيب يومًا قصيدته التى مدحه بها، وقد سار لبناء الحدث[1] وأولها:

على قَدْر أهل العَزْم تأتى العزائمُ وتأتى على قدر الكرام المكارمُ

فلما بلغ إلى قوله:

وقفتَ وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ كأنك فى جَفْن الرَّدَى وهو نَائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هَزيمةً ووجهك وَضَّاحٌ وثغْرُكَ باسم[2]

قال سيف الدولة: قد انتقدتها عليك، كما انتقد على امرئ القيس قوله:

كـأنى لم أرْكَـبْ جـوادًا لِـلَّذَّةٍ ولم أتبطَّنْ كاعبًـا ذاتَ خلْخَال

---

(١) الحدث بلد بالروم كان أهلها سلموها لأمير الروم «الدمستق» فسار إليها سيف الدولة ليستردها ويبنى قلعتها وقد نازله الدمستق فحمل عليه سيف الدولة فظفر به وأقام حتى بنى الحدث سنة ٣٤٣ هـ، فقال هذه القصيدة يمدحه بها.

(٢) وقفت غير منهيب الموت الذى لا شك فيه لمن تقدم تقدمك، وكأن الموت نائم ومعرض عنك والأبطال تمر بك وهم جرحى منهزمون، ولكن ذلك لا يثنى عزمك، ولا يضعف نفسك بل كنت بسامًا غير متضجر واثقًا من الله بالنصر.

ولم أسبأ الزِّق الرَّوىَّ ولم أقل   لخيْلىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجْفال[1]

فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرئ القيس، وكان ينبغى له أن يقول :

كأنّى لم أركبْ جوادًا ولم أقُلْ   لخيْلىَ كُرِّى كرَّةً بعد إجفال
ولم أسبأ الزِّقَّ الرَّوىَّ للذةٍ   ولم أتَبَطَّن كاعبًا ذات خلْخَال

وكذلك كان ينبغى أن تقول :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقف   ووجهُك وَضَّاح وثَغْرُك باسمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمة   كأنك فى جَفْن الرَّدى وهو نائم

فقد تنبه سيف الدولة إلى أن تناسب المعانى فى التشبيه يستلزم عكس الترتيب بجعل الشطر الثانى من البيت الأول فى موضع نظيره من البيت الثانى، مبرهنا على ذلك بأنه إذا وقف والموت لا شك فيه فكان وضاح الجبين باسم الثغر، دُلَّ بذلك على تناهى شجاعته إذ يضحك فى مقام البكاء، ويشرق جبينه على حين يشتد العبوس وتكفهر الوجوه، وكذلك إذا كان لم يسلم من ضرر القتال أحد ثم كان الممدوح مصونًا كأنه فى جفن أطبقه النوم، كان ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة.

فقال المتنبى : إن صح أن الذى استدرك على امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس، وأخطأت أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك، لأن البزاز يعلم جملته، والحائك يعلم جملته وتفصيله، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد والشجاعة فى منازلة الأعداء بالسماحة فى شراء الخمر للأضياف للتضايف بين كل من الفريقين، وكذلك لما ذكرت الموت فى صدر البيت الأول، اتبعته بذكر الردى فى آخره، ليكون أحسن تلاؤما، ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوسًا، وعينه باكية،

---

(١) لم أتبطن : لم أجعلها بطانة، أى بطنى فوق بطنها، الكاعب التى برز ثديها، يريد أن الشباب ذهب، وكان ما ناله من لذاته لم يكن، أسبأ الخمر : اشتراها لا للبيع ولا للتجارة، الزق : وعاء الخمر، الروى:المملوء، الكر : الرجوع على العدو، الإجفال : الانهزام. (ديوان المتنبى جـ٣/٣٨١، مختار الشعر الجاهلى جـ١/٤٠).

قلت: «وجهك وضاح وثغرك باسم، لأجمع بين الأضداد فى المعنى.

فأعجب سيْفَ الدولة كلامه، ووصله بخمسمائة دينار»[١].

وإذا كان هذا شأن بعض التشبيهات لبعض الشعراء والاختلاف فى تقديرها وتقويمها، فإننا نجد أن تشبيهات القرآن من التشبيهات الخالدة خلود الزمن، الدائمة دوام الدهر، صنعها رب العباد وبناها على شيء طبيعى، لا يكاد يختلف باختلاف العصور، ولا يتفاوت بتفاوت الزمان، عناصره عناصر الطبيعة الناطقة بعظمة الله، الشاهدة بآثاره، ماثلة أمام البشر، معروفة لديهم، شائعة بينهم وحاضرة بين أيديهم، فلا تجد النفس فرصة للتردد فى قبوله أو الشك فى معقوليته، لذلك نجد مدار التشبيه وعماده على اقتراب الصورتين فى النفس، وشدة وضوح الطرفين للسامع بصرف النظر عن نفاسته أو تفاهته.

فنجد أن القرآن الكريم يأخذ صور تشبيهاته من نبات الأرض، وحيوانها وجمادها، التى بين أظهرهم، وتحت أعينهم.

يقول سبحانه: (والقمرَ قدَّرناه منازل حتى عاد كالعرجُون القديم) (يس ٣٩)، فهذا القمر الذى يملأ الليل بهجة وضياء ويحيل وحشته أنسا، يصبح نحيلا مقوسًا تتخطاه العيون، وتزدريه الأبصار.

ويقول: (إنا أَرْسَلْنا عليهم ريحًا صَرْصَرًا فى يوم نَحْس مسْتَمِر، تَنْزعُ الناسَ كأنهم أعجَازُ نَخْل منقَعر) (القمر ١٩، ٢٠)، فالتشبيه بأصول النخل المقتلع من الأرض، منثورًا هنا وهناك، صورة قريبة لتمثيل هؤلاء الكفار صرعى حين تهب عليهم الرياح فتقتلعهم من أماكنهم، وهذه الصورة تهز العاطفة، وتثير الانفعال، وتأخذ مكانها من الأفئدة والألباب.

ويقول: (محمدٌ رسول الله والذين معهُ أشِدَّاءُ على الكفارِ رُحَمَاءُ بينهم.. ومَثَلُهُمْ فى الإنجيل كزرع أخرج شَطْأَهُ فآزرَهُ فاسْتغْلَظ فاستوى على سُوقه، يُعْجب الزُّرَّاع، ليغيظَ بهم الكُفَّار) (الفتح ٢٩)، فالرسول ﷺ وأصحابه بدءوا قلة، ثم

(١) الصبح المنبى ٨١ - ٨٥، يتمة الدهر جـ١/١٥.

صاروا قوة تملأ الرسول أملا والكفار غيظًا، فشبههم بصورة الزرع وقد نبت ضعيفًا ثم لا يلبث أن يقوى ويشتد بما حوله من البراعم حتى يصبح بهجة للناظرين.

ونلاحظ هنا أن: المشبه به - الزرع - استغرق فقرات كثيرة، ذلك لأنه من نعم الله على البشرية، فالقرآن يبطئ فى عرضها، ويتمهل فى إظهارها، لتقرع تلك النعم مسامع الناس وقتًا طويلاً.

ويقول: (مثل الذين اتَّخَذوا من دُون الله أوْلياء، كمثل العَنْكبوتِ اتَّخَذَت بيتًا، وإن أوْهَنَ البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون) (العنكبوت ٤١)، فالآية تصور المشركين من قوم نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وعاد وثمود، وقارون وفرعون وهامان، وعدم اعتمادهم على غير الله، واعتقادهم فى آلهتهم الخير - والخير منهم بعيد - مثلهم فى ذلك كمثل العنكبوت، ذلك الحيوان الذى يتعب نفسه فى البناء، وجهده ضائع، إذ لا يبنى إلا أوهن البيوت.

وعلماء الحيوان[1] اكتشفوا أن العنكبوت أشرس الحيوان وقد بلغ من شراسته أن الأم تقتل الأب بل الأولاد أيضًا، ثم هو يحوك بيته من خيوط وهى على سمكها البسيط أقوى من مثلها من الصلب بأكثر من مرتين، ويتخلل هذا الخيط نقط لزجة تساعد على اصطياد الفريسة بسهولة.

والبيت بهذه الصورة التى اكتشفها علماء الحيوان صورة مهلكة لمن يدخله أو يلتجىء إليه، وليس فيه أى صفة من صفات الأمان والاستقرار.

وعلى ضوء هذا الفهم الجديد للآية يكون معنى التشبيه أن لجوء المشركين لآلهتهم تلك مهلك لهم ومميت كمن يلجأ من الحشرات إلى بيت العنكبوت فمآله الدمار والهلاك ووقد ختمت الآية بما يفيد أن هذا العلم صعب وغير ميسور للجميع وإنما يفهمه ذوو العلم والإدراك.

ويقول: (خُشَّعًا أبصارُهم يخْرجُون من الأجْداثِ كأنهم جرَادٌ منتشَر) (القمر ٧) فالمشبه به الجراد الدائم الانتشار حتى يكون التشبيه دقيقًا فى تصوير تلك

(١) ملخص حديث من برنامج «العلم والإيمان» فى «التليفزيون» للدكتور مصطفى محمود.

الجموع الخارجة من القبور المنتشرة فى كل مكان.

ويقول: (مثل الذين حُمِّلُوا التوراةَ ثم لم يَحْمِلُوها كمثل الحِمار يَحْمِلُ أسْفارًا) (الجمعة ٥)، فهو يصور اليهود الذين يقرءون التوراة ولا يعملون بما فيها بالحمار المَعْنِيِّ الذى يحمل أسفار العلم ولا يدرى مما ضَمَّته شيئًا.

ويقول: (وتكون الجبالُ كالعِهن المَنْفُوش) (القارعة ٥)، فالجبال الشم الصلبة يوم القيامة تكون خفيفة هشة كالصوف المنفوش، وقد شبهت الجبال بأضعف ما يكون وأرخاه، لإظهار قدرته تعالى، مبالغة فى الرد على من أنكر المعاد، وتكذيبًا لمن حاك فى صدره استبعاد ذلك.

ويقول: (وإذا رَأيْتَهم تُعْجِبُك أجْسَامُهم وإن يَقُولُوا تَسْمَعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة) (المنافقون ٤)، فالمنافقون مثل الخشب المسندة على الحائط والتى لا فائدة فيها، لأنها ليست خشبًا قائمة فى أشجارها يرجى منها الجمال والظل، وليست مثبتة فى جدار ترفع السقف أو مستعملة فى النوافذ والأبواب ولكنها خشب مسندة لا نفع فيها، ولا خير فى وجودها، فهى أشبه بالزوائد التى يجب أن تستأصل والنفايات التى ينبغى أن تلقى.

ويقول: (وعنْدهم قَاصِرات الطَّرفِ عِينٌ، كأنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنون) (الصافات ٤٨، ٤٩)، فالحور العين فى الجنة مشبهات بالبيض المكنون فى نقاء اللون ووجوب التعامل معه بالرفق والحذر حتى لا يخدش أو يصاب.

والقرآن الكريم إذا لم يجد فى بعض التشبيهات المشبه به الفائق على المشبه - حقًا وواقعًا - تخيره مما هو المثل الأعلى فى نظر المخاطبين وإن لم يكن من هذا العلو على القدر المطلوب، كقوله تعالى: (الله نُورُ السمواتِ والأرض، مَثَلُ نورِه كَمِشكَاةٍ فيها مِصْبَاح المصباح فى زجاجة..) الآية: (النور ٣٥).

وهكذا نجد أن عناصر التشبيه فى القرآن تستمد من الطبيعة أمام أعين الناس، القريبة من أذهانهم مما جعلها خالدة وباقية على مر العصور، وإن قل المشبه به وضؤل أمره، فهو لا يعنى بنفاسة المشبه به، وإنما العناية كلها باقتراب الصورتين فى

النفس وشدة وضوحها[١]، فالقرآن يختار من الصور الأدبية ما يمكن أن يكون من الصور العالمية التى تظل موحية والتى يظل فعلها القوى الساحر، مهما اختلفت البيئات وتتابع الزمن.

أغراض التشبيه

المتحدث لا يلجأ إلى التشبيه إلا لهدف يرمى إليه، وغرض يقصده منه، وهذا الغرض وذاك الهدف، منه ما يعود على المشبه، ومنه ما يعود على المشبه به، فأما ما يعود على المشبه فإليك بيانها :

١ - بيان صفة المشبه :

وذلك إذا كان المشبه مجهولا وغير بين الدلالة، فنقيسه بمشبه به معروف وغير مُنْكر، فيتضح المشبه، ويُبين المجهول، كقولنا : الأرض كالبيضة فى الشكل.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (وأمَّا عادٌ فأهْلِكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية، سخَّرها عليهم سبع ليال وثمانيةَ أيام ٍ حُسُومًا، فتَرى القوْم فيها صَرْعَى كأنَّهم أعْجاز نَخْل خَاويةٍ) (الحاقة ٦، ٧)، أراد الله سبحانه أن يوضح حال عاد - وهم قوم هود فى الأمم الغابرة - حينما أرسل عليهم الريح العاتية سبع ليال وثمانية أيام متتتابعة فشبههم بما هو مألوف عندهم، واضح أمامهم، وهو أصول النخل الفارغة.

وقوله : (إنَّا أرسلنا عليهم صَيحَةً واحدَة فكانوا كَهَشِيم ِ المُحْتظِر) (القمر ٣١)، وحينما أراد الله أن يوضح حال ثمود - وهم قوم صالح من العصور البائدة - عندما أهلكهم بالصيحة، شبههم بما هو عندهم معروف، وهو الشجر اليابس المتكسر الذى يعمل منه الحظائر.

ومنه قول النابغة فى النعمان بن المنذر :

كأنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ مِنْهنَّ كوكب

(١) راجع بلاغة القرآن ١٩٦ وما بعدها.

ونلاحظ أن المشبه به معروف لدى المخاطب، لئلا يؤدى إلى التشبيه بالمجهول، لأن النفس تهش لما تعرف، يقول تعالى فى معرض الامتنان على أهل الجنة : (كُلَّما رُزِقُوا منها مِنْ ثمرةٍ رِزْقًا قالوا : هذا الذى رُزِقْنَا من قبل وأتُوا به مُتَشَابِهًا) (البقرة ٢٥) قال المفسرون فى تعليل تشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة :

إن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل[١].

وهذا النوع من التشبيه يكثر فى العلوم والفنون لمجرد البيان والإيضاح وتقريب الحقيقة إلى الأذهان.

٢ - تقرير صفة المشبه فى ذهن السامع :

هذا الغرض يكثر فى تصوير الأمور المعنوية والذهنية فى صور حسية مشاهدة، حتى تتمكن الصورة فى نفس السامع، وتستقر فى ذهن المخاطب لأن النفس إلى الحس أميل، وكماقالوا : من فقد حِسًّا فقد فقد علما.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (والذين كَفَرُوا أعمالُهم كسَرَابٍ بِقيعَةٍ يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً، حتى إذا جاءه لم يَجِدْهُ شيْئًا ووجَدَ الله عِنده.. أو كظلمات فى بحرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ موجٌ من فَوْقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظُلماتٌ بعضها فوق بعض إذَا أخرج يَدَهُ لم يكدْ يرَاها) (النور ٣٩ - ٤٠).

يصور الله أعمال الكفار - وهى من الأمور المعنوية - بصورتين حسيتين : إحداهما، السراب الخادع الذى يراه الناس كثيرًا فى الصحراء، ومرة أخرى بالظلمات المتراكبة فى البحر اللجى، وبهذا التصوير استقرت صفة الضياع فى ذهن السامع. ونظرة إلى الآيات القرآنية فى تشبيه المعقول بالمحسوس نجدها من هذا القبيل.

ومنه قول الشاعر :

إنَّ القلوبَ إذا تنافَرَ وُدُّها مثلُ الزجاجة كَسْرها لا يُجْبر

---

(١) تفسير النسفى جـ ١/٣٣.

فالشاعر لما أراد أن يقرر – أن القلوب المتنافرة لا تعود إلى الصفاء – أبرزها فى صورة تشاهد بالعين لتؤمن به النفس إيمانًا قويًّا، وليس من شك أن التئام الزجاجة بعد كسرها من الأمور المقطوعة بتعذرها.

ومثله قول الشاعر يصف اليوم بالطول:

بيوم كِظلِّ الرمح، قصرَّ طولَه　　دَمُ الزِّق عنا واصطكاك المزاهر[1]

شبه اليوم الطويل بظل الرمح، وظل الرمح يضرب به المثل فى الطول عند العرب.

وقول الآخر يصفه بالقصر:

ظللنا عند باب أبى نعيم　　بيوم مثل سالفة الذباب[2]

وبالموازنة بين قولنا: يوم طويل لا آخر له، أو قصير جدًّا، وبين البيتين السابقين نجد أن تجسيم المعنويات وعرضها فى صورة ملموسة يكون أمكن فى النفس، وأقوى فى القلب.

ولهذا يجب أن يكون المشبه به أتم فى وجه الشبه فى المشبه ليتقرر فى ذهن السامع ويزداد به إيمانًا.

٣ – بيان مقدار صفة المشبه من الزيادة أو النقصان أو القوة أو الضعف: وذلك إذا كان المخاطب يعرف حال المشبه معرفة إجمالية، ويجهل مقدار هذا الحال، فيقاس حينئذ بشىء يعرف المخاطب مقدار حاله.

كقوله تعالى: (وتَرَى الجبالَ تحْسَبُهَا جَامِدَةً ووَهىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب) (النمل ٨٨)، فالمخاطب فى الآية الكريمة يعلم يقينًا أن الجبال تمر بسرعة، ولكن لا يدرى مقدار هذه السرعة، فوضَّح التشبيه مقدار السرعة تلك بسرعة مرور السحاب.

---

(١) دم الزق: أى شرب دم الزق، على تقدير مضاف، الزق: وعاء الخمر، المزاهر: جمع مزهر وهى آلة من آلات الطرب – العود – اصطكاكها: تحركها بالضرب.

(٢) سالفة الذباب: مقدم أعناقه، ويضرب به المثل فى القصر.

وكقوله تعالى : (ثُمَّ إنكم أيُّها الضَّالُّون المكذِّبون، لآكلون من شجرٍ من زَقوم، فمَالِئُون منها البُطُون، فشَارِبُون عليه من الحَميم، فشاربون شُرْبَ الهِيم) (الواقعة ٥١ - ٥٥)، فالمخاطب يعلم يقينًا بشرب الكفار من الحميم - وهو الماء الحار - ولكنه لا يعلم مقدار اندفاعهم على هذا الشراب مع حرارته الشديدة، فوضَّح التشبيه أن اندفاعهم كاندفاع الإبل العطاش التى لا تُرْوَى لِدَاءٍ عندها، ولا تزال تشرب حتى تهلك.

ومنه قول الأعشى :

كأنَّ مِشْيَتَها من بَيْت جارَتها مَرُّ السَّحابة، لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

فوضح الشاعر المِشْية بأنها لا تسرع ولا تبطئ كالسحابة.

وقول الشاعر :

مِدَادٌ مثلُ خافيةِ الغُراب وأقلامٌ كمرهفة حِدَادِ[1]

ومن هنا ترى أن المشبه به فى بيان مقدار حال المشبه يكون على حد المشبه فى وجه الشبه لا أكثر ولا أقل.

والفرق بين بيان الحال والمقدار : أن بيان الحال يكون للمشبه المجهول والتشبيه يوضحه، بيان المقدار، المشبه معروف والتشبيه يحدد قدره.

٤ - بيان إمكان وجود المشبه :

وذلك إذا كان المشبه أمرا غريبًا يمكن أن يدعى امتناعه، فيشبه حينئذ بشيء مسلم الوقوع، ليكون كالدليل على إمكانه، كقول الحسين بن مطير يرثى معن ابن زائدة :

فتىً عِيش فى معروفه بعْد موته كما كان بعد السَّيل مَجْراه مَرْتعَا

(١) المداد : الحبر، الخافية : ريش فى الطائر يختفى إذا ضم جناحيه، المرهف، المرقق، الحداد جمع حديد، وهو القاطع.

فالشاعر يقول : إن الناس قد عاشوا فى معروفه بعد موته، ولكنه لما توهم أن السامع قد ينكر عليه دعواه أو يشك فيها، أتى بمشبه به مسلم الوقوع، وهو أن السيل يغمر الأرض حتى إذا انقطع عنه وجف مجراه نبتت فيه المراعى، فرتعت فيه الماشية ما شاءت أن ترتع، فالمشبه به برهان على صحة دعواه، وبيان لإمكان مُدَّعاه.

ومنه قول الشاعر :

فإن تكنْ تغْلبُ «الغلباءُ» عُنصرُها فإن فى الخمر مَعْنىً ليس فى العِنب

فالشاعر يقول : إن هذه المرأة «الغلباءُ» من قبيلة تغلب ذات العز والشرف فإن فيها من معانى الكمال ما جعلها تفوق قومها وتبذ قبيلتها، ثم دلل على هذه الدعوى بما يؤيدها وهو أن العنب - أصل الخمر - ولكنها فضلت عليه لمعنى اختصت به دونه.

وقول الشاعر فى المدح :

مِنَ الوَرَى هوَ، لكنْ فاقهم كرَمًا كذلك الدر والحصبا أحجارُ

وقول ابن الرومى :

عدوك من صَدِيقك مستفادُ فلا تُكثِرنَّ من الصحاب
فإن الداءَ أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

ومن هنا نرى أنَّ المشبه به لا بد أن يكون مسلم الوقوع عند السامع.

٥ - تزيين المشبه :

يزيَّن المشبه ويظهر فى صورة محببة للنفوس ليتخيله المخاطب كذلك، وقد حفل القرآن بتشبيهات ترغِّب فى الجنة، وتزين المقام بها وسط السعادة المادية التى تبعث الراحة فى النفس، والاطمئنان إلى بهجة الخلود.

يقول تعالى : ﴿إن المتَّقِين فى جنَّات ونَعيم، فاكهين بما آتاهم ربهم.. وأمَدَدْناهم بفاكهةٍ ولحم مما يَشْتهون، يَتَنازَعون فيها كَأْسًا لا لغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ، ويطوف

عليهم غلمانٌ لهم كأنهم لُؤْلُؤٌ مكنون) (الطور ١٧ - ٢٤).

ويقول: (متكئين فيها على الأرائك لا يَرَوْن فيها شمسًا ولا زَمْهريرًا، ودَانِيَةً عليهم ظِلاَلُهَا. ويطوفُ عليهم وِلْدان مُخَلَّدون إذا رأيْتَهم حَسِبْتَهم لُؤْلُؤاً مَّنْثورًا) (الدهر ١٣ - ١٩).

ويقول: (والسَّابقون السابقون، أولئك المقَرَّبُون... يطوفُ عليهم ولْدَانٌ مُخَّلدون، بأكواب وأباريق وكأسٍ من معين لا يُصَدَّعُون عنها ولا يُنْزِفُون، وفاكهة مما يتخَيَّرون، ولحم طير مما يشتَهُون، وحُورٌ عِينٌ كأمثال اللؤلُؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون) (الواقعة ١٠ - ٢٤).

فالمشبه به فى الآيات السابقة المراد به: تحسين أحوال المشبه وتزيينه، وإن أريد به بيان الحال.

ومنه قول الشاعر:

تَفَاريق شَيْبٍ فى الشباب لوامعُ وما حسنُ ليل ليس فيه نجومُ

فالشيب وقعه على النفس أليم، ومنظره أمام العين قبيح، ولكن الشاعر حسنه فى هذا التشبيه الضمنى، فقد شبه الشيب يلمع بين سواد الشعر بحال النجوم تتألق فى جنح الليل، لتزيين المشبه فى عين المخاطب.

٦ - تقبيح المشبه:

يُقَبِّح المشبه ويظهر فى صورة منفرة تتقزز منها النفس، ليتخيله المخاطب كذلك فيرغب عنه، وقد حفل القرآن بكثير من هذه الصور ليقبح الاعتقادات الباطلة ويزيف العادات التى تعودوها فى جاهليتهم.

يصور الله تعالى آكل الربا بصورة منفرة فيقول: (الذين يَأكلون الرِّبَا لا يقُومُون إلا كما يقوم الذى يَتَخَبَّطهُ الشيطان من الْمَسِّ) (البقرة ٢٧٥).

فآكل الربا يظهر بصورة من أصابه مس من الشيطان، فهو لا ينهض حتى يسقط، ولا يقوم إلا ليقع.

ويهاجم القرآن المنافقين ويصورهم بصورة تحطم نفسيتهم، وتبعث فى القلوب كراهتهم، فيقول تعالى: (إذا جَاءك المنافقون... وإذا رأيتهم تُعجِبكُ أجسامُهم، وإن يقولوا تَسْمعْ لقولهم، كأنهم خُشُبٌ مسنَّدَةٌ) (المنافقون ١ - ٤)

ويقول: (ومَثَل الذين كفروا كمَثَل الذى يْنعِق بما لا يَسْمَع إلا دعاءً ونداءً، صُمٌّ، بكمٌ، عميٌ، فهو لا يعْقلون) (البقرة ١٧١).

ويقول: (والذين كفَرُوا يتمَتعُون ويأكلون كما تأكل الأنْعامُ والنارُ مَثْوى لهم) (محمد ١٢).

فتشبيههم بالصم، والبكم، والعمى، والدواب السائمة، يؤذن بخروجهم من دائرة البشرية، مما يوجعهم، وينفر الناس منهم.

ومنه قول الشاعر:

وإذَا أشَـارَ محدِّثًـا فكـأنـه قِرد يُقْهقِهُ، أو عجوزٌ تَلْطِم

وقد حسن ابن الرومى العسل وذمَّه فأتى بالغرضين فى وقت واحد، فقال:

يقولُ: هذا مُجَاج النحل تمدحُه وإن تَعِبْ قلتَ: ذا قيء الزنابير

٧ - استطراف المشبه:

وذلك بأن يبرز المشبه فى صورة أنيقة تخلب اللب، وتبهر العقل، وتبعث فى النفس الراحة، وتثير فيها المتعة، ويظهر ذلك فى صورتين:

(ا) أن يبرز المشبه فى صورة ممتنعة الوجود فى الخارج فى العادة والعرف كقول ابن المعتز:

كأن عيونَ النَّرجَس الغضِّ حولنا مَـذَاهن دُرٌّ حَشْوُهُنَّ عقيق[٢]

فقد شبه زهر النرجس بمداهن الدر يتوسطها العقيق، وهى صورة طريفة

(١) المجاج: الريق، ومجاج النحل: العسل، الزنابير: من فصيلة الذباب ذو لسع أليم.
(٢) راجع: فصل أسباب تأثير التمثيل فى النفس.

لا توجد إلا فى الخيال، لإبراز المشبه فى صورة الطريف البديع.

ومنه قول الصَّنوبَرى السابق[١] :

وكـأن مُحْمَرَّ الشَّقِيق إذا تَصَـوَّب أو تصَعَّد
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْنَ على رِماحٍ من زَبَرْجد

(ب) أن يبرز المشبه فى صورة يندر حضورها فى الذهن عند حضور المشبه به، كقوله تعالى: (والقمرَ قدَّرناه منازل حتى عاد كالعُرجُون القديم) فصورة «العرجون القديم» غير نادرة الحضور فى الذهن، بل هو شائع ومطروق، ولكنها تندر عند استحضار صورة القمر، للبون الشاسع بين الصورتين فإن القمر مسكنه فى السماء، والعرجون مقره فى الأرض، والقمر مثال العلو والهداية، والعرجون شيء تافه، وشتان ما بين الصورتين.

ومنه قول الشاعر:

ولا زِوَرْدية تـزْهـو بـزُرقَتِهـا بين الرياض على حُمْر اليواقيت
كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْنَ بها أوائلُ النار فى أطرافِ كبريت[٢]

كان المناسب للشاعر أن يشبه أزهار البنفسج وهى على سيقانها بما يناسبها من الأزهار، لكنه شبه بصورة أوائل النار فى أطراف الكبريت عند شبوبها فالمشبه به غير نادر الحضور فى الذهن، إذ هو منتشر بين عامة الناس، لكنه يندر حضوره عند حضور صورة البنفسج وهى على سيقانها، لما بينهما من بعد الموطن فهذا زَهْر نَدىً، وذاك لهب محرق.

ويدخل فى هذا الموضوع الحكاية المعروفة من حديث عَدى بن الرِّقَاع، قال جرير: أنشدنى عدىّ * عرفَ الديار تَوَهُمًا فاعتَادَها *

فلما بلغ إلى قوله:

* تُزْجِى أغَنَّ كأن إبرةَ رَوْقِه * رحمته، وقلت قد وقع، ما عساه يقول وهو

(١) راجع (فصل طرق التشبيه المعقول والمحسوس).

(٢) راجع ص ٦٣.

أعرابي جِلْفٌ جَافٍ؟، فلما قال: * قلمٌ أصابَ من الدَّواة مِدَادها * استحالت الرحمة حسدًا. فهل كانت الرحمة في الأولى والحسد في الثانية إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه فذكر مالا يحضر له في أول الفكر وبديهة الخاطر، وحين أتم التشبيه وأدّاه، صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف، وعثر على خَبِيءٍ مكانه غير معروف؟[1].

أما الأغراض التي تعود على المشبه به فهي في صورتين:

١ - التشبيه المقلوب:

وذلك بأن يقصد المتكلم إيهام أن المشبه به أقوى وأتم من المشبه في وجه الشبه، كقول البحتري في وصف بركة المتوكل:

وبَدَتْ كأنها حين لجَّتْ في تَدفقِها ... يَـدُ الخليفَة لَمَّا سَالَ واديها

فالشاعر أراد أن يوهم أن يد الخليفة أقوى تدفقًا بالعطاء من البركة بالماء.

ومثله قول محمد بن وهيب يمدح المأمون:

وبَـدَا الصباح كـأن غُرَّتـه ... وجـهُ الخليفةِ حـين يُمْتَدح

وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيه الوجه بالصباح، لأن تشبيه الوجه بالصباح أصل متفق عليه لا ينكر ولا يستنكر، إنما الذي يستنكر تشبيه الصباح بالوجه.

٢ - بيان الاهتمام بالمشبه به. كأن يشبه الجائع وجهًا جميلا بالرغيف في البياض والاستدارة، فيدل بهذا التشبيه على اهتمامه به ورغبته فيه وأنه لا يغيب عن خاطره لجوعه، ولولا ذلك لشبهه بالبدر مثلا، إذ هو المتبادر إلى الذهن، ويسمى هذا إظهار المطلوب.

ولو تتبعنا جميع الأغراض التي ذكرناها لوجدنا أنها مما تتعلق بالنفس إذ لا تعدو أن تكون تأثيرًا في الفكر، أو إثارة للوجدان والعاطفة.

---

(١) تزجي: تسوق والضمير للظبية، الأغن من الغزلان: الذي في صوته غنة - وهو ولد الظبية، الروق: القرن، إبرته: طرفه (الأسرار ١٣٢)، وتفصيل القصة في «فصل مكانة التشبيه من البلاغة» ص ١١٨.

التشبيه المبتذل والتشبيه الغريب

يتنوع التشبيه - باعتبار وجه الشبه - إلى نوعين:

أحدهما: قريب مبتذل، والثانى: بعيد غريب.

فالقريب المبتذل: كل تشبيه يُنْقَل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى تفكير وتأمل، بسبب وضوح وجه الشبه فيهما، كتشبيه الوجه بالصبح، والشعر بالليل، والفرس الأسود بالغراب، وجسم المرأة بالحرير، والشجاع بالأسد وبالسيف، والعين الرمداء بالجمر، والمحبوبة بالشمس، وبالغصن، وبالظبى، كقول الشاعر:

والوجهُ مثلُ الصبح مُبْيَضٌّ ... والفرعُ مثل الليل مسْوَدُّ
ضِدَّان لما استَجْمَعا حَسُنَا ... والضدُّ يُظهر حسنَهَ الضِّدُّ

وقول الآخر فى وصف الفرس:

وأدهم كالغراب سَوَاد لَوْنٍ ... يَطير مع الرِّياح ولا جَناحُ

وقال آخر:

لها بَشَرٌ مثل الحرير ومنطقٌ ... رخيم الحواشى، لا هُرَاءَ ولا نَزْرُ[1]

وقال آخر:

أنت كالليثِ فى الشجاعةِ والإقْـ ... ـدام، والسيفِ فى قِرَاع الخُطُوبِ

وقال غيره فى عين أصابها الرمد:

غَدَتْ عينُه كالجمر حتَّى كأنما ... سَقَى عيْنَه من ماءِ تَوْريدِه الخَدُّ

---

(١) الحواشى: جمع حاشية وهى الجانب، الهراء: المنطق الكثير، أو الفاسد، النزر: القليل.

وقال البحترى :

ذَات حُسْن لو اسْتَزادَتْ من الحُسْـ ـن إليه لَمَا أَصَابتْ مَزيدَا
فهى كالشمس بهجةً، والقضيب اللَّدْ ن قَدًّا، والرِّئم طَرْفًا وَجِيدَا[1]

فكل هذه التشبيهات فى متناول العامة، ويكثر تداولها بين الناس، وينتقل فيها من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى روية وإعمال فكر.

والسبب فى ذلك هو أنه إذا كثر تكرار المشبه به على الحواس اقتضى ذلك حضوره فى الذهن، وثبوت صورته فى النفس، ولهذا كانت الحكمة فى مدارسة العلوم وتكرارها على السماع، ففى ذلك سلامتها من النسيان ومانع لها من التَّفَلت.

* * *

وأما التشبيه البعيد الغريب : فهو كل تشبيه لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فكر وتأمل، لأن وجه الشبه خَفِىٌّ لا يقع فى النفس عند بدء النظر، بل بعد تثبت ونظر، وأسباب خفاء الوجه هى :

١ - أن يكون فى وجه الشبه تفصيل يحتاج إلى دقة الملاحظة وكثرة النظر والتأمل.

والتفصيل على وجوه :

الأول : أن يؤخذ بعض الأوصاف - وهو ماله داخل فى تحقيق التشبيه - ويترك البعض - وهو ما ليس له دخل فى تحقيق التشبيه، كقول امرئ القيس فى وصف السيف :

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كأن سِنانَه سَنَا لهبٍ لم يتَّصل بدخَانِ[2]

فالشاعر شبه سنان الرمح بلهب ذى سنا، فى الشكل واللمعان والزرقة

---

(١) القضيب : الغصن، اللدن : اللين، القد : القامة، الرئم : الظبى، الطرف : العين، الجيد : العنق.

(٢) الردينى : الرمح المنسوب إلى درينة، وهى اسم امرأة كانت تصنع السيوف، وكان زوجها «سمهر» يجيد صناعتها أيضًا وتنسب إليه الرماح السمهرية.

الصافية، ولكن الشاعر بعد التروى والنظر رأى أن فى المشبه به شيئًا يمنع تحقيق وجه الشبه - وهو الدخان الذى يعلو رأس الشعلة، إذ ليس فى رأس السنان ما يشبه ذلك - ووجد أن مقتضى الدقة أن يستثنى الدخان وينفى اتصاله باللهب، ويكون المشبه به فقط : اللهب ذو السنا المجرد عن الدخان، تحقيقًا للتشبيه، وتحقيق التشبيه على هذه الطريقة لا يأتى عفو الخاطر، بل لا بد من بذل مجهود فكرى، ومزيد من النظر والتأمل.

وقد كان لامرئ القيس - لهذا التفصيل - فضل السبق على قول عنترة العبسى فى وَرْد بن حابس، وقد أراد قتل نَضْلة الأسدى لثأر بينهما :

يُتَابِعُ لا يَبْتَغِى غيرَه بأبيض كالقبسِ الملتهب[1]

فالمشبه به واحد فيهما، ولكن لامرئ القيس فضل التفصيل وتحقيق التشبيه ونفى ما يعيبه.

ومثله قول زهير بن أبى سلمى :

كأن فُتَاتَ العِهْن فى كلِّ منزلٍ نزلْنَ به، حَبُّ الفنا لم يُحَطَّم[2]

فقد شبه الشاعر ما يتساقط من الصوف المصبوغ المعلق على الهودج - فى كل منزل نزلن به - بحب الفنا الذى لم يحطم، وقد نفى عن المشبه به التحطيم تحقيقًا للتشبيه، لأنه إذا كُسِر تغير لونه عن الحمرة.

ومثله قول الشاعر :

كأن عيونَ الوحْشِ حولَ خبائِنَا وأرْحُلِنا الجزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ[3]

---

(١) الأبيض : السيف، القبس : شعلة النار، المعنى : أن ورد بن حابس يتابع قتل نضلة لا يريد غيره ليثأر منه بسيف كشعلة النار.

(٢) الفتات : اسم لما انفت من الشىء أى تقطع وتفرق، العهن : الصوف المصبوغ، حب الفنا : عنب الثعلب وهو شديد الحمرة.

(٣) الخباء : البيت من الشعر، أرحل : جمع رحل وهو ما يحمل على البعير، الجزع بفتح الجيم أو كسرها وسكون الزاى : عقيق فيه دوائر بيض وسود، وفى البيت ما يسمى «بالإيغال» فجملة «لم يثقب» يتم المعنى بدونها ولكنها زادت لتحقيق التشبيه، ومثلها «لم يحطم فى البيت السابق».

فقد شبه أعين الوحوش التى كانوا يرمونها حول أخبيتهم بعد أن كانوا يأكلون لحمها، بالجزع الذى لم يثقب، وقد نفى التثقيب عن الجزع تحقيقًا للتشبيه وبيان تساوى الطرفين فى وجه الشبه، لأن الجزع إذا ثقب خالف العيون.

الثانى : أن يستعرض أوصاف المشبه كلها ثم يطلبها فى المشبه به كذلك حتى يجعل المرئيات واضحة وضوحًا يجعل القارئ ما يدرى أيقرأ صورة مسطورة، أم يشاهد منظرًا من مناظر الوجود؟ كقول ابن المعتز:

كأنَّا وضَوء الصبح يستَعْجل الدُّجى ... نُطيرُ غرابا ذا قوادم جون[١]

فالشاعر استعرض هيئة الليل وظلامه الحالك الذى يبدو فيه ضوء الصبح، وطلب هيئة شبيهة بذلك فأصابها فى الغراب الأسود ذى القوادم البيض، ولحرص الشاعر على تكامل هذه الأوصاف فى الغراب الأسود ذى القوادم البيض، ولحرص الشاعر على تكامل هذه الأوصاف جميعًا راعى أن تكون قوادمه بيضا ليطابق أطياف النور فى قطع الليل المظلم، وقد جعل الشاعر ضوء الصبح لقوة دفعه للظلام كأنه يستعجل الدجى ويحثها على الرحيل، ولما لاحظ ذلك فى المشبه لاحظه كذلك فى المشبه به، فقال : نطير غرابًا، لأن الطائر إذا كان واقفاً فى مكان ثم أزعج وأطير كان ذلك أسرع لطيرانه، وأدعى لإخفائه حيث لا تراه النواظر، بخلاف ما إذا طار عن طواعية واختيار، فقد يبطئ فى الطيران أو يطير إلى مكان قريب تراه فيه العيون.

ومثل ذلك قول الشاعر:

وقَدْ لاَحَ فى الصبح الثريا لمن رأى ... كعُنقودِ مُلاَّحِيَّةٍ حين نَوَّرَا[٢]

ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من تقارب الصور البيض المستديرة الصغار

---

(١) الدجى : الظلمة، القوادم : أوائل ريش الطائر فى مقدم الجناح، والجون بضم الجيم جمع جون بفتحها : يطلق على الأبيض والأسود والمراد الأبيض.

(٢) الملاحية بضم الميم وتشديد اللام مع كسر الحاء وتشديد الياء : عنب أبيض طويل، نورا : اخرج نوره، والمراد : نضج.

المقادير فى حالة ليست متلاصقة ولا متباعدة على شكل مثلث، وقد استعرض الشاعر هذه الصفات فى المشبه وطلبها فى هيئة أخرى شبيهة بها فوجدها فى عنقود الملاحية.

وكذلك قول شهاب التَّلعْفَرِى[1] فى وصف الشمس حال طلوعها:

وَلَاحَتِ الشمسُ تحكِى عند مَطْلعها ... مرآة تِبْرٍ فى كفِّ مُرْتَعِشِ

فقد شبه الشمس حين تطلع حمراء لامعة مضطربة بمرآة من ذهب تتحرك فى يد مرتعشة، ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق والحركة السريعة المتصلة، وقد روعى فى المشبه به التفصيلات الكثيرة التى روعيت فى المشبه من ملاحظة الشكل واللون والحركة الدائمة المضطربة مع التَّموجُّ.

ومثله قول بشار يمدح ابن هبيرة:

كأَن مُثار النَّقْع فوق رُءُوسِنا ... وأَسيَافَنا، ليلٌ تَهَاوَى كَواكبُه

فقد شبه بشار حال التراب المعقود فوق المحاربين فى المعركة والسيوف تلمع وتعلو وتنخفض فى حركات كثيرة إلى جهات مختلفة، بالليل المظلم تتهاوى كواكبه ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من سقوط أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار فى جوانب شيء مظلم، وقد راعى الشاعر التفصيل فى التشبيه حيث نظر إلى الغبار المنعقد فوق الرؤوس فى ميدان القتال، وقد لمعت فيه السيوف، وهى تعلو وترسب، وتجيء وتذهب، شبه تلك الصورة بالليل المظلم تلمع فيه الكواكب.

ففى كل تلك الصور ترى الشاعر يصور المرئيات وصفًا يجعل القارئ ما يدرى أيقرأ صورة مسطورة، أم يشاهد منظرًا من مناظر الوجود؟!

* * *

وبشار بتفصيله السابق فاق كثيرًا من معاصريه فى المعنى نفسه، فقد قال كلثوم ابن عمرو العتابى التغلبى يمدح هارون الرشيد:

---

(١) التلعفرى نسبة إلى «تل أعفر» فى الشام وهو من شعراء الدولة الأيوبية، التبر: الذهب.

تَبْنى سنابكها من فَوق أرْؤسهم   سقفًا كواكبهُ البيضُ المباتير[١]

وقال المتنبى فى رثاء محمد بن إسحاق التنوخى :

يزورُ الأعادِى فى سماء عجاجةٍ   أسنّتُه فى جانبْيها الكواكب[٢]

وقال مسلم بن الوليد :

فى جَحْفل تُشرق الأرضُ الفضاء به   كالليل أنجمُه القضبانُ والأسَلُ

وقال ابن المعتز :

إذا شئتُ أوقرتُ البلاد حوافزًا   وسارت ورائى هاشم ونزار
وعَمَّ السماءَ النقعُ حتى كأنه   دخانٌ وأطراف الرماح شرّار[٣]

فالكل نظر إلى التراب المعقود فوق الرءوس، فى ميدان القتال، وقد لمعت فيه السيوف، لمعان الكواكب.

إلا أننا نرى لبيت بشار من المزية والتأثير ما لاينكر، وذلك لأنه راعى هيئة السيوف وقد سُلّت من أغمادها وهى تتحرك فى جهات مختلفة عرضًا وطولا، وعلوا وانخفاضًا، وقد عبر عن هذه الدقائق بكلمة واحدة هى «تتهاوى» لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها، وكان لها فى حال سقوطها تداخل وتدافع واستطالة لأشكالها، وارتفاعها مرة وانخفاضها مرة أخر، وغير ذلك، وبذلك يكون لهذه الزيادة التى زادها بشار حظ من الدقة، ونصيب من الفضل والمزية ما ليس لتشبيه الآخرين، وإذا عرفنا أن بشارًا كان أعمى ندرك أن هذا البيت بهذا الوصف يعد من براعاته المشهورة.

* * *

---

(١) السنابك : جمع سنبك كقنفد وهو طرف الحافر، البيض : جمع أبيض وهو السيف، المباتير : جمع مبتار وهو القاطع.

(٢) العجاجة : الغبار، وسماء عجاجة : من إضافة المشبه به إلى المشبه، مثل : لجين الماء.

(٣) أحسن ابن المعتز حيث خلص الصورة ونقاها بقوله : «وعم السماء النقع» حيث دل على كثرة الجيش وانتشاره، بينما بشار قال : «فوق رؤوسنا» فجعل الصورة خاصة بينما الليل لا يخص رؤوسهم لعموم ظلمته الآفاق.

٢ - السبب الثانى لخفاء وجه الشبه فى التشبيه البعيد هو :

ندرة تكرار المشبه به على الحواس، وذلك يستدعى بطء حضور المشبه به فى الذهن عند حضور المشبه، وذلك لعدة أسباب :

أما لبعد المناسبة بين الطرفين، كقوله تعالى : (والقَمر قدَّرناه منازل حتى عاد كالعُرْجُون القديم) فصورة «العرجون» بذاتها ليست بعيدة الحضور عن الذهن، ولكنها تندر عند استحضار صورة «القمر»، للفرق الشاسع بين الصورتين، فالقمر مسكنه فى السماء والعرجون موطنه فى الأرض، والقمر مثال للهداية والرفعة، والعرجون شيء تافه حقير ليس له فائدة تذكر.

ومثله قول الشاعر :

وبين الخَدِّ والشَّفَتَيْن خالٌ　　كزنْجىٌّ أتى رَوْضًا صبَاحَا
تَحَيَّر فى الرياض فليس يَدْرى　　أيَجْنى الورْدَ أم يجْنِي الأقَاحَا[1]

وقول ابن المعتز السابق يصف زهرة البنفسج[2] :

ولازِوَرْدِيَّةٍ تـزْهـو بـزُرْقَتهـا　　بين الرياض على حُمْرِ اليواقيت
كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْنَ بها　　أوائلُ النار فى أطرافِ كِبْريت

فصورة النار فى أطراف الكبريت من الذيوع والشهرة بحيث تتكرر على الحس فى أوقات كثيرة، ولكن يندر حضورها فى الذهن عند حضور زهرة البنفسج - وهى المشبه -

ومن ذلك القصة السابقة لعدى بن الرقاع مع جرير فى قوله[3] :

تُزْجِى أغَنَّ كأنَّ إبْـرَةَ رَوْقِه　　قلمٌ أصابَ من الدواةِ مِدادَها

---

(١) الأقاحى : جمع أقحوان وهو زهر.

(٢) راجع ص ٦٣.

(٣) راجع فصل «أغراض التشبيه» ص ٨٥، وفصل «مكانة التشبيه من البلاغة» ص ١١٨.

وقد يكون ذلك لأن المشبه به وهمى كقوله تعالى : (طَلْعُها كأنه رُءوسُ الشياطين) (الصافات : ٦٥).

وقوله : (وأَلْقِ عَصَاكَ فلما رآهَا تَهْتَزّ كأنها جَانٌّ ولَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ) (النمل ١٠).

وقول الشاعر السابق :

أيقتُلنى والمشْرفى مُضاجعى ومسنونةٌ رزقٌ كأنياب أغْوال؟

وقد يكون ذلك لأن المشبه به مركب خيالى، كقول الصنوبرى السابق :

وكأن مُحْمَرَّ الشَّقيق إذا تَصَوَّب أو تصعَّد
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْنَ على رماحٍ من زَبَرْجد

وقوله أيضاً :

كُلُّنا باسطُ اليَدِ نَحْوَ نَيْلُوفَرٍ نَدِ
كدَبابيس عَسْجدٍ قُضْبُها من زَبرْجَد

وقول ابن المعتز :

كأن عيونَ النرجس الغَضِّ حولنا مداهنُ دُرٍّ حَشْوهُنَّ عقيق[1]

وقد يكون ذلك لأن وجه الشبه مركب عقلى، كقوله تعالى : (مثل الذين حُمِّلُوا التَّوراة ثُمَّ لم يَحْملوها كمثل الحمار يحْمل أَسْفَاراً) وقوله : (والذين كفَرُوا أعمالُهم كسَرابٍ بقِيعَةٍ يَحْسَبه الظمآن ماءً حتَّى إذا جاءَهُ لم يجِدْهُ شَيْئاً ووجَدَ الله عنده)[2].

وقول كثير عزة :

لقد أَطْمَعَتنى فى الوِصَال تَبَسُّماً وبَعْد رَجَائى أَعْرَضَتْ وتَوَلَّتِ
كما أبرَقَتْ قوماً عطاشاً غمامةً فلما رَجَوْها أَقْشَعتْ وتجلَّت

---

(١) راجع ص

(٢) الآية الأولى فى سورة الجمعة ٥، ووجه الشبه : التعب فى استصحاب الشىء النافع بلا منفعة، والثانية بسورة النور ٣٩، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الأمل المطمع والنهاية المؤيسة.

فهذا تصوير لحال المضطر إلى الشيء الشديد الحاجة إليه، وقد لاحت له علامات الظفر به، ثم يفوته ذلك، ويبقى بعد بحسرة فوته.

فقد شبه الشاعر حال محبوبته وقد أطمعته فى الوصال ثم أعرضت عنه فخاب أمله فبقى فى حسرة، بحال قوم عطاش يتلهفون على الماء وقد رأوا سحابة تبرق فأطمعتهم فى غيثها ثم أيأستهم بفوتها وذهابها، فبقوا فى ألم وحسرة، ووجه الشبه : ظهور أمارات الظفر بالمقصود للمحتاج إليه ثم اختفاؤها وإبقاؤها فى كمد وترح.

ووجه الشبه إذا كان عقليًا لا يجيء عفو الخاطر، ومن أول وهلة، بل لا بد من طول الأناة وامتداد الروية لندرة مروره على الخاطر.

تحويل التشبيه القريب إلى تشبيه غريب

عرفنا أن ابتذال التشبيه مبنى على سرعة حضور المشبه به إلى الذهن عند حضور المشبه، كالتشبيه بالأسد فى الشجاعة، وبالبحر فى الجود، وبالقمر فى الضياء... فنرى أن ذلك لا يحتاج إلى تروٍّ وتفكير، لأنه فى حكم الفطر المركوزة فى الطباع، والغرائز المستكنة فى النفوس، بخلاف التشبيه البعيد فإنه لا ينال إلا بالتعب والاجتهاد فى الطلب، فهو كعروق الذهب المخبوءة فى باطن الأرض لا تظهر بسهولة، بل لا يُظفر بها إلا بالحفر عنها، وبذل العرق لا صطيادها والتمكن منها.

لكن هذا التشبيه القريب قد يلحقه من الصنعة، ويدخل عليه من التجويد والإبداع، ما ينقله إلى الغرابة والبعد، كقول المتنبى :

لم تَحْكِ نَائلَك السحابُ وإنَّما ... حُمَّتْ به فَصَبِيبُها الرُّحَضَاءُ
لم تَلْقَ هذا الوجْهَ شَمْسَ نَهارنا ... إلَّا بوجه ليس فيه حَياءُ[1]

فتشبيه الجواد بالسحاب قريب مبتذل، ولكن الشاعر خالف التشبيه المألوف

---

(١) النائل : العطاء، حمت : أصيبت بالحمى، الصبيب : المصبوب، الرحضاء : عرق الحمى، والسحاب هنا بمعنى الجمع ولذلك أنث الفعل «تحك» كقوله تعالى : (حتى إذا أقلت سحابا ثقالا).

فجعله تشبيهاً ضمنيًّا[١] مضمراً فى النفس، ثم زاد فى الصنعة فأوهم أن السحاب من قبيل الأحياء فهو حسود، فهو فى جوده بالمطر لا يحكى الممدوح فى العطاء - لأنه لا يقدر على ذلك لأن عطاءَ الممدوح أكثر منه - وإنما المطر المصبوب هو عرق الحمى التى أصابته نتيجة لحسده للمدوح، وبهذه الصنعة اكتسب التشبيه الغرابة والإبداع.

كذلك البيت الثانى، فقد شبه الشاعر الوجه بالشمس فى البهجة - قريب متبذل - لكن صنعة المتنبى أكسبته الغرابة والبعد، فجعل التشبيه ضمنيًّا مضمراً فى النفس، ثم زاد فى الإبداع فأوهم أن الشمس كائن حى يستحى ويتوقح، ولو أنها تجملت بالحياء لتوارت خجلا من الممدوح، وبهذه الصنعة اكتسب التشبيه الغرابة والإبداع، وهذا لا يتأتى إلا بالتأمل والنظر.

ومثله قول بديع الزمان الهمذانى:

يَكاد يَحكيك صُوبُ الغَيْث منْسَكِباً ... لو كان طلْقَ المُحَيَّا يُمْطِر الذَّهَبَا
والبدرُ لوْ لمْ يَغِبْ، والشمسُ لو نَطَقَتْ ... والأسْدُ لو لم تُصَدْ، والبحرُ لو عَذُبَا

فالشاعر شبه الممدوح بالغيث، وبالبدر، وبالشمس، وبالأسد، وكلها تشبيهات قريبة، لكن الشاعر اجتهد فى إخراج هذه التشبيهات من الابتذال والامتهان، فعكس التشبيه فجعل المشبه به مشبهاً مبالغة، ثم زاد ما ضاعف من روعته، فقيد كل واحد من هذه التشبيهات بقيد وجعله شرطاً يتوقف عليه جمال التشبيه، لذا ارتفع هذا النوع إلى مرتبة الغريب البديع. ويسمى هذا التشبيه «التشبيه المشروط».

ويقول أبو تمام يصف النساء:

مَهَا الوحْشِ، إلا أن هَاتَا أوانسٌ ... قَنَا الخَطِّ، إلا أنَّ تلك ذَوابلُ[٢]

---

(١) التشبيه الضمنى: هو ما يلمح لمحا من المعنى - وسيأتى بيانه.

(٢) المها: البقر الوحش، القنا: الرماح، واحدها قناة، الخط: اسم موضع باليمامة تثقف فيه الرماح، ذوابل: من الذبول والجفاف والصلابة.

فتشبيه عيون النساء بعيون المها، والقوام بالرمح، تشبيه مبتذل، لكن أبا تمام أخرجه من الابتذال بهذا الاستثناء البديعى، فقد أوهم أن النساء - وهن مشبهات - يفضلن عن البقر الوحشى - وهن المشبهات بهن - لأنهن أوانس يأنس بهن من يلقاهن ويأنَسْنَ به، بخلاف البقر الوحشى فإنهن نوافر، وكذلك المرأة ذات القوام المعتدل فإنها تفضل الرمح، لأنه جاف، وهى غضة طرية، وهذا أيضاً من قبيل التشبيه المشروط.

ويقول البحترى فى الغزل :

فى طَلْعةِ البَدر شىءٌ من مَحَاسِنها ... وللقضيبِ نَصِيبٌ من تَثَنِّيهَا

فتشبيه الوجه بالبدر، والقوم بالغصن تشبيه مبتذل، لكن البحترى أدخل عليه من الصنعة ما أخرجه من الامتهان، فعكس التشبيه، ثم زاد فى بعث الحياة فى التشبيه، فأوهم أن البدر - وهو المثل فى الحسن والجمال - فيه شىء - من محاسنها، وكذلك فعل فى الشطر الثانى فعكسه، ثم زاد فأوهم أن الغصن - وهو أصل فى الاعتدال - فيه نصيب من تثنيها.

وبهذا ترى أن التشبيهات المبتذلة تحولت إلى بعيدة وغريبة لصنعة أُدخلت عليها وجهد بذل فيها.

التشبيه المقلوب

تعارف الأدباء والنقاد من قديم على تشبيه الخد بالورد، والثُّدِىِّ بالرمان، والأعجاز بالكُثبان، والعيون بالنَّرجس، والثُّغور بالأقحوان، والسيقان بالجُمَّار. والعنق بإبريق الفضة، والشعر بالليل، والشجاع بالأسد... إلخ.

لكن أرباب الصناعة البيانية المتفنون فى طرق الأداء، لم يقفوا عند التشبيه العادى، لأنهم يرون أن هذه المبالغة المعتدلة أقل من أن تشبع رغباتهم فيما يتوخونه من أغراض الكلام فى الغزل والمدح والرثاء وما إليها، فكان أن سلكوا لذلك طرق القلب فى التشبيه توصلا لهذه المبالغة المنشودة.

على أن التشبيه من حيث هو لم يرض نزعة بعض الشعراء المحبين للإغراق، فبعضهم ازدرى التشبيه أصالة، كقول المتنبى يفخر بنفسه :

أَمِطْ عنك تشبيهى بمَا وكأنَّه فما أحدٌ فَوْقى ولا أحدٌ مثلى(١)

فالمتنبى وغيره من الشعراء لم يرضوا عن التشبيه مع افتنانهم فى تلوينه بمختلف الأصباغ.

والتشبيه المقلوب نفسه – مع ما يحويه من مبالغة واضحة – لم يجدوا فيه مقنعاً فمجنون ليلى يقول :

أخذتْ محاسنَ كل ما ضَنَّتْ محاسنُه بحسنه
كاد الغزالُ يكونها لولا الشَّوَى ونُشوز قَرْنه(٢)

فالغزال يقرب منها شبها لو لم تكن فيه هذه العيوب الطبيعية(٣).

وقال عبد القاهر فى معناه : «جعل الفرع أصلا، والأصل فرعا»(٤).

ومعنى كونه مقلوباً : أن يجعل ما الوجه فيه أتم مشبها، ليتوهم السامع أن المشبه به المقصود بالمبالغة أتم فى وجه الشبه من المشبه – الذى أصله مشبه به – اعتماداً على القاعدة المقررة من أن الوجه فى المشبه به أتم، وذلك كقول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العَذَارَى قطَعْتُه وقد أُلْبسته المظلماتُ الحنادسُ(٥)

فذو الرمة جعل الفرع أصلا والأصل فرعا، وذلك أن عادة العرب، أن تشبه أعجاز النساءِ بكثبان الأنقاءِ، وهذا مطرد عندهم، كقول ذى الرمة أيضا :

تَرى خَلْفَها نِصْفاً قَناةً قويمةً ونصفاً نَقًا يَرْتَجُّ أو يَتَمرْمَرُ(٦)

---

(١) يريد «بما وكأنه» ما أشبهه بكذا وكأنه كذا.
(٢) الشوى : الأطراف.
(٣) فن التشبيه جـ١/٢٦٠، ٢٦٦.
(٤) أسرار البلاغة ١٩٤.
(٥) ألبسته بالبناء للمجهول : غطته.
(٦) النقا مقصور، كثيب الرمل، يتمرمر : يتحرك ويهتز.

ويقول البحترى :

أين الغـزالُ المستعيرُ من النَّقَـا كفَلاً، ومن نَوْرِ الأقَاحِى مَبْسِما[(١)]

فعكس ذو الرمة ذلك وشبه الأنقاء بأعجاز النساءِ، وقد فعل ذلك مبالغة، فأثبت هذا المعنى لأعجاز النساء فصار كأنه الأصل حتى شُبِّهتْ بها كثبان الأنقاءِ.

وقد ذكره ابن جنى وسماه «غلبة الفروع على الأصول»[(٢)].

وقد ورد التشبيه المقلوب فى القرآن فى آيات معدودات، منها ما حكاه – جل وعلا – عن مستحلى الربا من قولهم : (إنما البَيْعُ مثلُ الرِّبا) (البقرة ٢٧٥)، وقد قالوا ذلك فى مقام : إنما الربا مثل البيع، لأن الكلام فى الربا لا فى البيع، ذهابا منهم إلى جعل الربا فى الحل أقوى وأعرف من البيع.

ومثله قوله تعالى : (أَفمَنْ يخلُق كمن لا يَخْلُق أَفلَا تَذَكَّرون)؟ (النحل ١٧)، الخطاب لعبدة الأوثان إذ كانوا قد سمَّوْها آلهة، وجعلوا غير الخالق بمنزلة الخالق فى استحقاق العبادة، وكان مقتضى ظاهر المقام أن يقول : «أفمن لا يخلق كمن يخلق»، فخولف فى خطابهم، لأنهم بالغوا فى عبادة الأصنام، وغلَوْا فيها حتى صارت عندهم الآلهة الجماد أصلا، والخالق – سبحانه – فرعا.

والمراد «بمن لا يخلق» على هذا : هو الأصنام، بدليل قوله تعالى : (والذين يَدْعُونَ من دون الله لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخْلَقُون) (النحل ٢٠) وجيء «بمَنْ» المختصة بأولى العلم والعقل، لأن الله خاطبهم على معتقدهم لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم، والغرض من الخطاب الإفهام، ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ومفهومهم فقال : أفمن يخلق كما لا يخلق» لا اعتقدوا أن المراد من الثانى غير الأصنام من الجماد.

وقال ابن الأنبارى : إنما جاز ذلك لأنها ذكرت مع العالم فغلب عليها حكمه فى اقتضاء (من) كما فى قوله تعالى : (والله خلق كل دابَّة من ماء فمنهم مَنْ يَمْشى على

(١) الكفل : العجز.

(٢) الخصائص ج١/٣٠٨.

بَطْنه) (النور ٤٥)، وكما فى قول العرب : اشتبه علىَّ الراكبُ وجملُه، فما أدرى من ذا ومن ذا؟[١].

وللسكاكى فى هذا التشبيه رأى، فيقول : «هو لمزيد التوبيخ، دون أن يقول : أفمن لا يخلق كمن يخلق، مع اقتضاء المقام بظاهره إياه... وعندى أن الذى تقتضيه البلاغة القرآنية هو أن يكون المراد : بمن لا يخلق، الحى العالم القادر من الخَلْق، لا الأصنام، وأن يكون الإنكار موجها إلى توهم تشبيه الحى العالم القادر من الخَلْق به[٢] - تعالى وتقدس عن ذلك - تعريضاً به عن أبلغ الإنكار لتشبيه ما ليس بحى عالم قادر به تعالى، ويكون قوله : «أفلا تذكرون» تنبيه وتوبيخ على مكان التعريض»[٣].

والفرق بين القولين : أن إنكار تشبيه الأصنام بالله يكون مستفادا من ذلك على سبيل التعريض عند السكاكى، وعلى سبيل التصريح عند غيره.

ومنه قوله تعالى : (أَمْ نجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، أَمْ نجعلُ المتقين كالفجّار)؟ (ص ٢٨)، وقوله : (إنَّ للمتقين عند ربهم جناتِ النعيم، أفنجعل المسلمين كالمجرمين)؟ (القلم ٣٤، ٣٥).

فقد تخالفت الصورة التشبيهية أصلها فى الآيتين، لأن الكفار لما كانوا يقولون : نحن نسود فى الآخرة كما نسود فى الدنيا، جاء الجواب على وفق معتقدهم أنهم أعلى والمسلمون أدنى[٤].

ويصح أن يقال[٥] : إن التشبيه فى الذم يُشَبَّه الأعلى بالأدنى، لأن الذم مقام

---

(١) مسائل الرازى وأجوبتها ص١٧١، الكشاف جـ٢/٤٦٦.

(٢) ويكون المعنى : أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف بمالا علم عنده كالأصنام مثلا؟

(٣) المفتاح ١٦٣.

(٤) بغية الإيضاح جـ٣/٤٥، المواهب الفتحية جـ١/١٢٩.

(٥) والقرآن فى بعض تشبيهاته يجرى على الترفع بالكامل أن يتساوى بالناقص فيقدمه عليه، وذلك فى حالات النفى كآية الأحزاب ٣٢ أو ما يجرى مجرى النفى كما فى قوله تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرين، أم نجعل المتقين كالفجار) إن المراد من الاستفهام النفى، ومثلها : (أفمن يخلق كمن لا يخلق) فلم يبق إلا آية الربا والبيع التى هى نص فى التشبيه المقلوب.

الأدنى، ومنه قوله تعالى : (يانساءَ النَّبى لَسْتُنَّ كأحدٍ من النِّساءِ) (الأحزاب ٣٢)، أى فى النزول من العلو، أو فى التنزل والامتهان كقولهم : ماسٌ كالزجاج، ودُرٌّ كالخزف، ويكون التقدير فى الآيتين : أنجعلهم مثلهم فى سوء الحال، وانحطاط المنزلة ؟[١].

وما هو مصبوب فى هذا القالب قوله تعالى : (أفرأيتَ مَن اتَّخَذ إلَهَه هَواه) (الجاثية ٢٣)، بدل - أرأيت من اتخذ هواه إلهه[٢].

قيمته البلاغية :

أشار العلماء إلى جمال التشبيه المقلوب، فقد سماه ابن جنى «غلبة الفروع على الأصول، وقال : إنه فصل من فصول العربية طريف تجده فى معانى العرب كما تجده فى معانى الأعراب، ولا تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض منه المبالغة»[٣].

وقال الوطواط[٤] : أجمل التشبيهات وأكثرها قبولا لدى الطباع، هى التى إذا انعكست وشبه فيها المشبه به بالمشبه، فإن الكلام يستقيم مع صحة المعنى وسلامته، وصواب التشبيه وصحته، مثل تشبيه الطُّرَّه بالليل البهيم فإنهم إذا شبهوا الليل البهيم بالطرة كان التشبيه جميلا مقبولا، ومثل تشبيه الهلال بنعل الجواد، فإنهم إذا شبهوا نعل الجواد بالهلال كان التشبيه كذلك حسنا.

وقد فطن ذو الذوق السليم إلى جمال التشبيه المقلوب، وعلو منزلته فى البيان قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول : إنكم معاشر أهل الحضر، لتخطئون المعنى، إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن فيقول : كأنها الشمس، ولم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه ؟[٥].

---

(١) الصور البيانية ١٧٢.
(٢) المفتاح ١٦٤.
(٣) الخصائص جـ١/٣٠٨.
(٤) حدائق السحر ١٣٨.
(٥) نهاية الأرب جـ٣/١٨.